ـــ د.عشراتي سليمان ـــ

الشخصية الجزائرية

بانوراما المشهد الحضاري لميلاد الدولة الحمادية



الجزء 2

دار الغرب للنشر و التوزيع



أ.د.عشراتي سليمان

الكتب الصادرة

- الخطاب القرآني
- العهد القديم والواقعة الاسرائيلية
- الستر والعري في أخلاق العهد القديم
- العقيدة الانجيلية وجدلية الانغلاق والانفتاح
- السياسة وإشكال الشرعية في الإسلام
- بديع زمان النورسي
- النورسي في رحاب القرآن
- الأمير عبد القادر السياسي
- الأمير عبد القادر المفكر
- الأمير عبد القادر الشاعر

بالإضافة إلى أعمال أخرى في الحضارة والأدب والإبداع السينمائي.

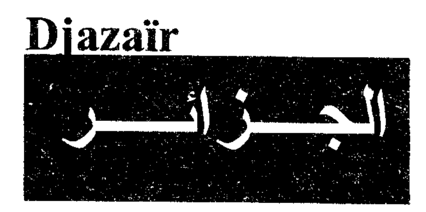
أ.عشراتي سليمـــان

الشخصية الجزائرية

بانوراما المشهد الحضاري لميلاد الدولة الحمادية

الجزء الثاني

***Cet ouvrage est édité avec le concours
du Commissariat général
de l'Année de l'Algérie en France***



دار الغرب للنشر والتوزيـــع

استهلال

وقـــد ألقينا نظرة عامة على المسار التاريخي والسياسي الذي مر به شمال افريقيا البربري قبل الفتح الاسلامي وبعده ، كان لابد لنا أن نتوقف عند حلقة متميزة في سلسلة هذا التاريخ ، شهدت ميلاد أول دولة بربرية صميمة ، نقصد بها الدولة الحمادية.

فقد كتب لهذه الدولة أن تظهر إلى الوجود على يد أبناء المغرب الأوســـط مـــن رجال صنهاجة وكتامة ، ممن شبوا في ظل الاسلام وتمرســـوا بمدنيـــته في مجالات التسيير والقيادة والتعمير ، وهو ما هيأهم لأن يأخذوا زمام أمر هذه البلاد بأنفسهم مستقلين عن المركزية العبـــيدية التي قامت على كاهلهم ، وتحولت إلى بلاد المشرق معولة على عصبيتهم وقوتهم.

لقـــد أردنا أن نستبين عن قرب بعض ما يطبع عملية قيام الدول من مخاض وألم.

فواقعـــة ميلاد الكيانات السياسية تتجانس إلى حد بعيد مع ميلاد الكائـــن الحي مطلقا، فهي واقعة تقوم على مواجع وتمزقات ترهص لصرخة الحياة التي يرسلها الوليد ويبهج بها الأسماع.

وقد رأينا أن نوسع الصورة فنعرض لجدلية التفكك والتركيب التي ظلت قانونا يشرط ظاهرة قيام الدول وسقوطها ، والتي رأينا ابن خلدون عبر عنها في مقدمته بما غدا نظرية سياسية وعمرانية لاجتماع الأمة المسلمة في القرون الوسطى.

ومما سجلناه من أحوال ملازمة لميلاد الدول الاسلامية وملابسة لحدوثها هو واقع التنازع والتعسر والفجيعة. لكأن التاريخ ظل في تلك العهود يعمل من خلال دوامة الاصطراع والفتن والانتفاض على تجاوز مساحات الركود التي كانت المدنية الزراعية تحبسه فيها ، لذا كانت له في أوضاع التشاقق والتمزق التي تطرأ على البنى والوحدات والكيانات السياسية سبيلا يجدد به المشهد وينشط الحركة ويشبب المسيرة.

كما لفتنا الصبغة التعصبية التي أضحت تلحم بين القوى الاجتماعية ، فالمحرك يومئذ كان الدم والرحم والشعوبية ، وكان أيضا الفيئات والمجاميع التي يوحد بينها المشرب والمصلحة.

فالعيارون ، وهم تلك الطوائف من اللصوص والبطالين والمهمشين والمتغربين عن بلدانهم ومن إليهم ، قد أخذوا صبغة العصبية النافذة في المجتمع الاسلامي ، التي باتت تتعاطى الفعل الاجتماعي وتؤثر -من ثمة- في الشأن العام وفي السياسة.

ولا بدع - والحال تلك- أن يتهيكل المجتمع الاسلامي بأطر كان قاسمها المشترك هو المصلحة.

بل لا عجب أن تظهر في ذلك التقسيم المجتمعي الصراعي مصطلحات معبرة وفي مقدمتها مصطلح النقابة. فقد وجدنا مثلا نقابة الاشراف ، وكان لها ديوانها وسلمها الرئاسي والعرفي.

بل لقد كان مصطلح الطبقة من أظهر المحددات التي بات المجتمع المدني الاسلامي يمايز بواسطتها بين الفئات ويرسم أقدارهم ومراكزهم: طبقة القضاة ، طبقة الفقهاء ، طبقة..

وكان طبيعيا أن تضحى العسكرية عصبيية قائمة بذاتها ، وربما ظلت تتمسك بالتميز العرقي الذي وضعها فيها الجدل الصراعي، بعد أن انزلقت إليه الحضارة الاسلامية في ما عرف بالشعوبية.

وقد شملت نزعة الانتماء والتكتل فئات التجار والحرفيين والشرط.. بل وانتهت إلى المكارين وأصحاب الفنادق من حيث تكترى الدواب والمركوبات.

ومن أظهر أحوال التضامن الفيئوي ما كان يبادر إليه أصحاب المهنة التجارية أو الخدماتية الواحدة إذا ما أفلس أحدهم. فقد جرى عرفهم أن يمسكوا عن العمل يوما لصالحه ، فتصب أموال البلد من أقصاها إلى أقصاها في حجره ، فيسترد وضعه ، ويستأنف نشاطه بقوة وعافية.

وهي حال باتت تمارسها في واقعنا الجزائري اليوم قطاعات حكومية ومدنية عدة ، وبكثير من التكتم.

فالجمركي ورث ابنه الجمركة والشرطي مثله والبريدي أيضا ، وكذلك الجندي والمغني والدبلوماسي وهلم جرا.

فضيق مجالات الحياة وفرص الرزق يفسح لمثل هذه الظواهر أن تترسخ ، وفي ذلك ما فيه من ظلم وعدم تكافئ الفرص.

ومن الواضح أن الدولة الحمادية قد عاشت العسرة في عهود نشأتها الأولى ، ثم كتب لها أن تزدهر ، وهو ما هون عليها أن تتصدى إلى ما ظل يعرض لها من ضغوط ومداهمات ، إذ أن منطق الاحتواء كان هو السائد بين الكيانات: حوت يأكل حوت.

كل ذلك عاشته الحمادية وترك أثره على المواطن في بلاد المغرب الأوسط.وصاغ ملامح من شخصية الجزائر الحضارية.

سنن التفكك والتركيب. وميلاد الدولة الحمادية

الوضع المادي والأدبي للخلافة العبيدية والأموية والعباسية في القرن الخامس:

لقد أشرنا فيما سبق إلى أن تحول العبيديين من المغرب إلى مصر كان يطمح إلى أن يستوعب في مركزية سياسية وثقافية أطراف العالم الاسلامي التي كان التفكك قد سرى في كيانها عصرئذ, وهدد الخلافة العباسية بالاندثار.

ولقد كان عمر الخلافة العبيدية الفتي، قياسا بنظيرتيها العباسية أو الأندلسية الأقدم نشأة ، عاملا حيويا في إحداث حركية سياسية وعسكرية وعمرانية في قلب العالم الإسلامي بحيث أضحت مصر قطبا للتفاعلات الاجتماعية والثقافية في محيط يمتد من افريقيا غربا وينتهي إلى قلب آسيا شرقا ، بعد أن تكرست الخطبة للعبيديين في مكة وباتت أخبار وقائعهم العسكرية في الشام وفي البحر ضد الروم تبلغ الأقاصي ، وهو ما جعل الميول السياسية تهفو إليهم , وكثرة من الأقاليم تشرئب نحوهم. لقد رأينا منذ حين كيف تعالت الخطب للمستنصر من منابر بغداد، الحاظرة العباسية ذاتها في عهد البساسيري مثلا.

لقد كفل لهم التوسع العسكري كونهم رفعوا شعارات الدعوة العلوية التي كانت في بعض جوانبها تنتصف لآل البيت ، ومن خلالهم للمستضعفين عامة ،الأمر الذي جعلهم يستقطبون آمال الأمة

فـي مرحلة ما .. تلك الأمة التي كانت ظمآى إلى المجد , تواقة إلى الخـلاص من ترديها ، فكانت التجديدات السياسية والعسكرية تثير فـيها وازع الحياة ، فلا تملك حيال تلك التلويحات الواعدة بالانبعاث غـير أن تسـتجيب وأن تلـتف حـول كل داع.. مما جعل ظاهرة الخـروج ومخالفة السلطان تطرد وتلبس شتى الأردية بما فيها رداء العنف كما مارسته الباطنية مثلا.

لقـد اسـتحدث الخلفـاء العبـيديون من مظاهر الحفاوة وأبهة التشريفات ما اغتنت به البروتوكولية السلطانية في الحضارة العربية الاسـلامية، اذ تحدث التاريخ مثلا، عن مراسيم كاملة لواقعة خروج الخلـيفة المعـز, تلك الواقعة التي كانت تقترن بمناسبة حلول رأس العـام الهجـري أو بأحد العيدين ، الفطر والاضحى، فكانت تحشد للحدث من ألوان الإستعراض والإبهار، وفي كل فن، ما يعكس وجها ذوقيا وجماليا لا يولده الا نضوج حضاري راسخ.

لقد كانت تستعرض في تلك التظاهرة الأسلحة بمختلف أنواعها، ويصطف الضباط بملابس الشرف، ويخرج الوزير بأبهة الملك ومن حوالـيه عباب من الأعلام الزاهية ترفرف، ثم يخرج الجند الخاص علـى أظهـر بغـالهم وطبولهم ترعد, ثم يلحق بهم أرباب الدواوين وسـامو الاطـارات , وإذ يظهر الخليفة إلى الناس تحف الحاشية به وتتعقـبه في سيره حتى ينتهي الى مكانه في الصدارة, حيث يجلس ، فـيقرأ المجـودون القـرآن بين يديه، ثم تبدأ الاستعراضات بألوانها ومـبهراتها, وينشد الشعراء أشعارهم .. ثم يتحول الخليفة بالمواكب

وسـط زفة من الطبول والآلة والفرسان ، يؤمون أماكن معلومة ، ومزارات ، ومساجد .

ثم ينتهون الى المشهد الرسمي ، وهناك يبدأ مسلسل التكريمات ، والترقـيات ، والتشـريفات ، فتوهب العطايا وتوزع الهبات والمنح، وتـبذل الأطعمة , ويتبارى القوالون والشعراء والمغنون، وتتصادح الصـنوج والطبول ، وتتمادى العروض والأفراح الشعبية من حول الموكـب الرسـمي ، وتعمر الساحات بأهل التلهية والبدع ومحترفي الألعـاب والفـرجة وصناع المسرات ، ويتابع الخليفة المشاهد التي يخصـه بهـا أصـحابها أو التي يحضرها له الوزير.. بعدها يعود الخليفة إلى القصر، تاركا الحارات تعج بالمحتفلين والمتفرجين. لقد كانت مناسبة الخروج حدثا جاريا يقوم به الخليفة في أي يوم اتفق من أيـام الاسـبوع , لا يقطعه عنه إلا الطوارئ والاختلالات الأمنية.. فالدولـة كانـت بهـذه المراسـيم ترسي نظاما يترسخ به حضورها وهيبتها.

علـى أن هـناك مراسيم كانت تقام في اطار احتفالي جماهيري موقـوت ومشهود كلما حلت مناسبة دينية مثل عيدي الفطر والنحر ومناسـبة تشييع الحجيج إلى البقاع المقدسة ، وكانت حملات الجهاد تعـرف أيضـا حفاوة لكنها حفاوة يطغى عليها الحماس الديني وجو الجد.

لقــد تميزت الخلافة العبيدية في مصر ميزة سياسة تمثلت في طــول اســتقرار الخلفاء على سدة الحكم واستتباب عهودهم ، وعدم تعرضهم للهزات والإزاحات التى كان خلفاء بني العباس أو بني أمية بالاندلس عرضة لها على نحو دائم تقريبا وخاصة في مراحل الهرم المــتأخرة.. فالمنتصر العبيدي مثلا، على ما طبع عهده من ضعف, حكم ما ينيف عن الستين عاما.

لقــد كــان معــدل فــترات حكم الخلفاء العبيديين مرتفعا قياسا بــنظرائهم فــي كلتي الخلافتين : العباسية والأموية.. على أن عمر الخلافة العبيدية يعتبر عارضا بالقياس إلى العباسية.

بــيد ان هــذه الحال لاتعني براءة العهود العبيدية من عوارض الضــعف والخور , بل لقد رأينا التذمر والتحلل من روابط الطاعة التــي مــيزت الوضــع الاجتماعــي والعسكري في مصر العبيدية، يتصــاعد ويــتفاقم في مراحل عدة،وكان ذلك في الحقيقة عائدا إلى ضــعف الخلفاء ووهن سلطانهم وانحسار سيادتهم إلى حد الصورية أمام الوزراء والحاشية وقوى التنفذ ، مثلما كان شأن الخليفة المنتصر نفسه, أطولهم عهدا كما أسلفنا .

لقــد كانت والدة هذا الخليفة هي المتنفذ الحقيقي في أمر الدولة, وتلــك ظاهــرة اطردت لمصر في عصور مختلفة, حيث ظل النساء يجــدن أنفســهن فــي موقع القيادة وسياسة الشؤون العليا، منذ عهد الفراعنة .

لقد كان لهذه السيدة وزير يهودي يشير عليها باللازم من التدابير، وكانــت العسكرية تتألف من عبيد وأتراك لايفتأ التنازع قائما بينهم، وكان تأجيج الصراع بين الطرفين يلائم وضع السيدة ويسوغ قيامها على رأس الدولة .. غير أن اشتجار الفتنة بين العسكر وبين الفرقاء الآخرين من قوى النظام، مصامدة وعربا، شيعة وسنة , آل في آخر الأمر بالوضع الى الانفجار.

وقــد ظهر القائد العربي ناصر الدولة الحمداني في ذلك المشهد المــتردي ، ضابطا انقلابيا يعمل على ربط مصر بالخلافة العباسية, حيث نجده أرسل ذات حين إلى الخليفة ببغداد يعلمه أنه سيخطب له, لكــن العســكر التركي عاجلوا هذا القائد بالإعتقال وقتلوه, وقبل ذلك كــان هــؤلاء العســكر التركــي وبقيادة الحمداني نفسه قد ازاحوا المستنصــر عن الحكم, وطالبوه بأموال وضيقوا عليه, وحين أوفدوا رسولا يتسلم المال منه، رأى هذا الرسول الخليفة يجلس على حصير ،ولــيس من حوله غير ثلاثة خدم, وسمعه يقول له ، وكأنما يريد أن يقــرعه عمــا كان يغيب عنهم من حاله : أما يكفي ناصر الدولة أن أجلس في مثل هذا البيت على مثل هذا الحصير؟

وطبيعــي أن لا يحمــل مثل هذا الموقف الدرامي، ذلك الرسول العســكري ، مهما كانت غلظته وفضاضته ، إلا على البكاء والرثاء لحال الخليفة .

لقد تحكمت العسكرية في شؤون الخلافة العبيدية على نحو ما كانت تتحكم به في بغداد أو في الاندلس, وصعدت من اذلالها للخليفة و خاصة على عهد ناصر الدولة الحمداني، وقد كان المنزع المذهبي يعمق من الخلاف بين الشخصيتين , اذ كان الحمداني " يظهر التسنن..ويعيب المستنصر, وكان المغاربة كذلك, وهم رجال الدولة, أو (لوموكلاتورا) بلغتنا الحديثة, فأعانوا الحمداني على ما أراد، فقبض على أم المستنصر, وصادرها بخمسين ألف دينار, وتفرق عن المستنصر أولاده وكثير من أهله، إذ توجهوا الى المغرب وإلى بلاد أخرى, ومات كثير منهم جوعا وتشردا ، وانقضت سنة 446 هـ والسنة التي قبلها حافلتين بالفتن, وانحط السعر سنة 4 65 هـ، ورخصت الأسعار, وبالغ ناصر الدولة في اهانة المستنصر وفرق عنه عامة أصحابه, وكان يقول لأحدهم: أني أريد أن أوليك عمل كذا, فيسير إليه فلا يمكنه من العمل ، ويمنعه من العود , وكان غرضه بذلك أن يخطب للخليفة القائم."[1]

إنها حال تكشف عن خور بليغ أصاب الخلافة العبيدية يومئذ ، أدى إلى اضمحلال أمرها عهد المستنصر الذي كانت العسكرية تحكم قبضتها عليه, وتخطط للإطاحة به وبالخلافة العبيدية ذاتها، على نحو ما كان يحدث للخلافة العباسية أيضا في عهد البساسيرى كما رأينا.

و قبل عهد المستصر كان يتميز عهد الخليفة العزيز أيضا بهذا التنفذ الأجنبي المسيحي اليهودي, من خلال توليهم إدارة شؤون

- [1] ابن الأثير .الكامل.

الخلافة وتسيير مجالات حيوية فيها. فلقد ولى العزيز عيسى بن نسطور النصراني ديوان كتابته , واستناب بالشام يهوديا اسمه منشا, فاعتز بهما النصارى واليهود وآذوا المسلمين ،فعمد بعض أهل مصر وكتبوا قصة ورشقوها على تمثال , جاء فيها:

" بالذي أعز اليهود بمنشا, والنصارى بعيسى, وأذل المسلمين بك، إلا كشفت ظلامتي."

وقد راج شعر ينتقد الوضع في عهد الخليفة العزيز , استنكارا لظهور النحل الاخرى على الملة الإسلامية.

وقد كان العزيز(المولود بالمهدية في افريقيا) لايتردد في اصلاح سياسته، فقد سعى الى القبض على كل من تناله انتقادات الناس, وإلى محاسبته، إذ كان عهده لايزال غضا في عمر الخلافة العبيدية, لذا لم يستشر الضعف في زمنه, الا ما كان من توليته الأجانب على المسلمين في بعض المرافق, وهو اجراء رأينا الحكام والخلفاء المسلمين ،سواء في بغداد أو في الاندلس ،أو حتى في الدول والممالك المستقلة, يتبعونه، وربما كان الدافع الى ذلك ما كانوا يلمسونه في هؤلاء الاجانب من كفاءة, واتقان، ومن خضوع ، وهي مزايا لم يلمسوها في الحاشية المسلمة المحيطة بهم.

لقد رأينا بعض الخلفاء العباسين(مثل القائم) يقر يهوديا على أخذ الضمان السنوي الذي كان يمثل فريضة ريعية ينالها الخليفة من

مداخيل الانتاج الزراعي ليعود الباقي إلى الضامن يتصرف به في ادارة الحياة العامة .

وكان الحاكم الأندلسي باديس بن حبوس الصنهاجي، يستوزر يهوديا وقد أثار هو الآخر حفيظة الرعية وارتفعت اليه أشعار الانتقاد والتسفيه..فالظاهر أن تنفذ الاجانب في شؤون الدول والخلافات الاسلامية ،كان يعكس وجها من الوجوه المنبئة باندثار سطان الخلافات(جمع خلافة) , على ما في ذلك التنفذ من دلائل السماحة الدينية التي يعرب عنها الحاكم المسلم، حين كان يسند الرئاسة الى ذمي مخالف له في الملة, فضلا عن كونه تدبيرا اسعافيا كان الحكام يحاولون به اطالة عمر الدولة، من خلال خدمات أهل الذمة ،والإستئناس بهم ،والركون إلى خضوعهم النسبي وتقيدهم بالانضباط وبتعاليم السلطان.

وربما كان عهد الحاكم بن العزيز أكثر العهود غرابة بما اتسم به سلوك هذا الخليفة من شذوذ ومفارقات, حاز بها شخصه وجه الاسطورة في المخيال التاريخي للمسلمين، لقد تحدث عنه المؤرخ ابن الاثير حديث الشخص الفصامي, إذ وصف من حاله في مبتدإ عهده، ما يجعل منه مثال الحاكم المسلم السمح, الثوري, والمصلح الاجتماعي ،الراعي للعلم, المتعهد للمؤسسات والمرافق الدينية والتعليمية.. ثم يسجل انقلابا طرأ على حياته وشخصيته, فنكص به عن استقامته تلك، إذ نكل بالعلماء, وتشدد في فرض أسس النظام

العام ،بالفصل الجذري بين النساء والرجال مثلا, وكانت نهايته غريبة أيضا، حيث اختفى فجأة ولم يعرف له خبر.

على أنه لابد أن نتحفظ حين نقوم سيرة هذا الخليفة العبيدي - الحاكم - إذ أن المزاجية التي صور عليها, لم تكن سلبية في عمومها, بل لقد بدا لنا أن الرجل كان على وعي بمأساة عصره, وربما كان متيقنا من اندحار حضارة الأمة, فكانت منه تلك النكسة النفسية الفصامية التي أشار اليه المؤرخون..وربما كانت نهايته ذاتها تحمل في بعض معانيها المآل الدرامي للحضارة العربية الإسلامية نفسها ..

وينبغي أن نعترف أن جهود الحاكم- قبل اختلاله – كانت موفقة في حقل التوسع الإقليمي ،سواء في الشام أو في العراق، بل لقد كانت ناجحة ومركزة وحققت أهدافها , وقد أفلحت في استقطاب قادة وأقاليم إليها , بحيث أطمعت تلك الجهود في إحداث الانتعاشة الجماهيرية التي كانت تتجدد مع كل بادرة عسكرية لتطويق فضاء التحلل من حول الناس..

وإن إعادة قراءة التاريخ, في كثير من المستويات،لمهمة ماسة ، وهذا لغربلته مما يشوبه من انتحالات, كانت الظروف التاريخية القديمة تسوغها. نقول هذا لأنا لم نستطع أن نتقبل كل ما أورد المؤرخون عن سيرة هذا الخليفة – الحاكموكثير غيره-إذ الأولى إن

كان كل ما ورد عن سيرته صحيحا ، أن يقال إنه كان مختلا ، فاقدا لصوابه.

أم تراها الإحن والأحقاد المذهبية هي التي شجعت على تشويه هذا الخليفة الذي شهدت مراحل توليه الأولى على قوة نفاذ وإرادة إصلاح لا تنكر.

وربما لاحظنا شيئا من التشابه في أحوال الخلافتين, من حيث صورية الشأن الذي كان عليه الخليفة العباسي أو العبيدي.. لقد كانت حال المستنصر من الضعف والهوان هي حال طائفة كبيرة من خلفاء بني العباس, إذ استبدت دونهم العسكرية، وطغت حتى على السلاطين وكانوا غالبا قادة عسكرا , الأمر الذي ساد معه العصيان ليس على الصعيد المدني فقط ولكن على المستوى العسكري بالذات ، وكان ذلك هو الأخطر ، إذ أن تحلل المؤسسة العسكرية لا ينبئ في أي مجتمع أو بلد إلا على نهاية سكينة وتمدن ذلك المجتمع , وهو ما حدث في المجتمعات الاسلامية حين انهار النظام الانضباطي والأخلاقي في الأوساط العسكرية ، فكانت الفتن الاجتماعية، وكان تداعي الفئات الناقمة, وكان الغصب والسلب ، وكانت التمردات والانقسامات.

وذات الحال كانت عليها خلافة الاندلس تقريبا, ويكفينا تعبيرا عن الوضع هناك، المصير الطائفي الذي آلت إليه تلك الخلافة، وتقزمها

إلى إمارات ، وكل ذلك كان الخطوة الأولى على طريق التردى الذي آل إليه أمرها.

لقد تفككت الخلافة ، وأضحت إمارات تسعها حواضر ومدن ومقاطعات لا تفتأ حدودها تتراجع نتيجة التغالب بين الأمراء وذلك ما سهل من عملية الافتكاك التي باشرها ضدهم عدوهم الملي . لقد استناموا لشكليات ساذجة ، باصطناع سيادة الملك وبانتحال مراسيمه ونعوته ، الأمر الذي بدا معه حالهم على مستوى من التسفل والسخافة مقيت ، وربما اختزلت أبيات ابن رشيق الشهيرة، التي أرسلها على نحو تحسري أسيف يصف المآل الكاريكاتوري لإمارات الأندلس..إذ يقول:

مما يبغضني في أرض الأندلس ** سماع مقتدر فيها ومعتضد
القاب مملكة في غير موضعها** كالهر يحكي انتفاخا صورة الأسد

لقد كانت أعراض هذا التحلل الذي أصاب نظام الدولة الاسلامية ، سواء عبر النظم والكيانات الخلافية الثلاثة أو فيما سواها من الممالك والسلطنات الإسلامية الأخرى، تقترن باختراق عسكري رومي متصاعد، شمل الاندلس وطال بلاد المغرب و مصر والشام.

وحسبنا أن نذكر أن صقلية, والقدس, وتخوما عدة في الاندلس والأطراف الشامية والمغربية قد سقطت في أيدي الصليبيين، وكان سقوطها يعكس مرحلة من العد التنازلي مؤذنة بانهيار اسلامي

حضـــاري مفجع، رغم مظاهر الانبعاث التي لبثت تنجم هنا وهناك، ســـواء في بلاد الهند وأصقاع آسيا، حيث كان الإسلام ينتشر بصورة شبه تلقائية , أو في داخل كيان الدول الاسلامية المركزية من خلال مســـاعي التفكـيك والتجديد السياسي التي كان أصحابها يؤملون من ورائها أن يتداركوا الوضع, قبل فوات الأوان..

وهكـــذا ففي الوقت الذي كان التاريخ يقلب فيه صفحة بني بويه بالمشرق, ليحل محلهم عصبية قومية أخرى هم السلاجقة، وذلك عام 432هـــ، نجـد دولة أخرى بالمغرب تنبعث من جوف الصحراء الغربـية لـتحل محـل دولة الطوائف بالاندلس, ولتكون الى حد ما, حاجـــزا بيـن دار الاســلام, ودار الكفر..إنها الدولة المرابطية التي ظهرت إلى الوجود عام 448هـــ .

فالصحراء المغاربية ومعها بلاد السيبة- وابتداؤها يمكن أن يكون الأطلـــس الصـــحراوي فما تحت- طفقت منذ ذلك الحين، بل وربما قـــبله ، تهب لنجدة وإطالة عمر الحضارة العربية الإسلامية ، ولبثت تسعفها بالمدود تغيث بها الحواضر وتسند الدول ، بيد أنها كانت في غضون ذلك، تقلص مع كل هبّة ووثبة من نطاق العمران الذي كان داء الهرم المبكر قد داهمه ، نتيجة فواعل ذاتية وموضوعية متكاثرة، انعطفت بالتاريخ صوب المنحدر.

المردود العلمي والثقافي لدار الإسلام في القرن الخامس والسادس الهجريين

قلـــنا ان هذا العصر كان عصر ما بعد النضوج، ولنسمه عصر الاختراف(من الخريف).

فالتراكمات الثقافية والعلمية التي تبلورت للمجتمعات الاسلامية عـــبر مـــرافق ثلاث خلافات ، ومعها شتات من الدول والإمارات ، كانت حقا تراكمات كثيفة ومتواترة في الآن ذاته, وكان القرن الرابع الهجـــري قـــرن الإستواء الحضاري بلا منازع. إذ كل فرع معرفي وعلمـــي قـــد أغلّ محاصيله التي غدت قنوات التوصيل العالمية أنئذ (طلـــبة - تجـــار - جند - كتب -قوافل ، الخ) تبثها في الأصقاع والأوساط على نحو تنويري ظاهر.

لقـــد أزاح الـــنورماند المســـلمين عن صقلية ولكنهم ظلوا أمدا يباشـــرون مهـــام الإدارة, والـــتدريس, والتهذيـــب الاجتماعـــي, والبروتوكولي.. بمعارف المسلمين وبقيم حضارتهم.

وكـــان هذا شأن امارات ايطاليا واسبانيا وفرنسا وجملة من بلاد الحـــوض المتوســـطي والأوروبـــي التي كانت تنتهي إليها معارف المسلمين وتقنيناتهم العلمية والثقافية ..فكانت تلك البلاد تأخذ بها،على اعتـــبار أنها محاصيل معرفية وثقافية ومدنية راقية وناجزة ، وذات فعالـــية تستصلح بها قليلا أو كثيرا أحوال المدنية وممارسات الناس هناك.

واتســم القــرن الخامس وما تلاه باطراد التقهقر ليس فقط على مســتوى الفــتوح والتوسع- فانتشار الاسلام الذي ظل متواصلا في آسيا، كان من بعض وجوهه انتشارا تلقائيا، محليا,ولا سلطان مباشر للخلافــة العباســية أو العبــيدية عليه في الغالب-ولكن التقهقر كان يصــيب أيضــا مســتوى الاستقرار والمعيش المدني والأمني ، وما يترتــب عــن اخــتلالها مــن تدهور شامل يمس المجالات العلمية والفعاليات الابتكارية, ويؤثر على الذوق والمشرب,وينزع بالناس الى التوحش.

لقد تواترت مشاغبات الجند وتصاعدت الفتن التي كان العيارون يفتعلونها ووازى ذلك الوضع مناورات السلطان وصراعات المذاهب واجتــياحات الأعراب والأكراد والاختراقات الرومية, والصدام بين الكيانات والدول الاسلامية..وذلك ما حول الانسان المسلم من صانع للحضارة, ومصدر للنور, الى انسان يستهلك المرصودات من تراثه المــادي والادبــي في شبه هستيرية واستسلام مفجع لما يتهدده من أخطار.

وكــان احســاس الــناس بالاغتراب والضياع وانعدام المرجعية الكافلــة للعــدل والعدالة, لايفتأ يزداد, لتزداد معه فصاميتهم, فهم من جهــة ما برحوا يمثلون محور الكون بحضارتهم التي كانت معطيات مدنيتها قد توطدت عبر واقع عمراني وارتفاقي مشهود.

وهــم مــن جهة أخرى أضحوا فجأة مثالا للتحلل وافتقاد الرشد الاجتماعــي والثقافي الذي ظلت تجسده لديهم قيم الاتزان, والسماحة, وارادة التطور وتحقيق الفعالية والنفاذ في عصر القوة والنماء.

ومــع ذلــك فقــد بقيــت هناك فواعل فكرية وثقافية، استمرت تمارس نشاطها التنويري في ظل هذا الواقع الحضاري المتدهور.

لقــد باشرت الحياة الاجتماعية والعمرانية عصرئذ مسارا مؤلما نحو التبدي والتوحش الحضاري. اذ أعاقت الهزات والفتن الاجتماعية والثقافية مسار المدنية وحدت من توسعه ، وإزاء ذلك اتسعت مساحة التــبدي والــتقهقر العمراني بشكل يتوازى أو يفوق مساحة الواقع الثقافــي الأرقى المنجز في عصور الازدهار على مستوى الحوضر والميتروبولات العمرانية الاسلامية.

لقد تباين المستويان الريفي والحضري ، وبقيت المدينة ، رغم ما كان يعتمل فيها من مخاضات وتمزقات ، فضاء الإحتكاك والمحافظة على الأعراف ، والصمود في وجه التحديات..

وأضــحت الــبادية، بعد أن كانت مصدر المعرفة الأصل ومثابة التحصــيل وتأصــيل المعــيار وموطن الرواية وجمع المادة اللغوية والشــعرية التــي تــتوثق بها روحية الأمة وفكرها, أضحت فضاء للقلاقــل، إذ تــردت فــي دوامــة العــنف ومجدت أخلاق الغلظة والغصب, وعاودت الناس روح الأيام والحروب وتعاطوا مساجلات

الغـــزو والنهب , وزايلتهم روح النخوة والفروسية كما كانت تجسدها الحياة البدوية قبل الإسلام وفي عهود أولى من عمر الدولة الأموية.

وإذا مـــا اعتبرنا بسيرة أحد فتاك العرب البداة المشارقة في هذا العصـــر, وهـــو المدعـــو صدقة, فإننا سنجدها سيرة تمثل الأريحية الـــبدوية في عزها وشممها، وتمثل أيضا مظاهر غرورها وقصورها عن المضي قدما على طريق انتاج الحضارة .

لقـــد كـــان صدقة هذا أحد مشايخ العرب الذين نجمت سلطناتهم وأخذت شكل كيانات سياسية ، ملأت الفراغ الذي أعقب الانحسار ، وكـــان ظهـــور تلك الكيانات يعد نتيجة من نتائج انسلاخ المدنية عن فضاء الجغرافية الاسلامية في تلك المرحلة .

وامـــتلك صـــدقة قدرة مادية تضارع قدرة الدولة ذاتها ، إذ اتخذ عســـكرية ودواويـــن ومالـــية ورعية ، وأبدى تشاغلا بالفن والثقافة وأضحى مقصد المستمنحين ، لكن الرجل كان في حقيقة أمره يبني كـــل مظاهـــر الملك على المظهر والشكل وتغليف الواجهة الذي لا طائل وراءه[2] .

- [2]كل ما نأمله لإخواننا من أهل الخليج أن لا يكونوا صورة أخرى لصدقة وتجربة معادة من تلك التجارب الظرفية.

أما الدول العربية الأخرى ، فواقعها لا زال يؤكد أن السياسة الرسيدة ، التي يتهيأ لإدارتها السلطان المستنير ، والكارزمي ، والديمقراطي ، هي السياسة التي تحرج الأمة من حلقة الفراغ والبوار التي تتحبس فيها.

لقـــد كان صدقة يتسلح بفطنة آنية ويعتد بفكر لا يتأهل – بسبب عدم التمرس– لمزاولة التنمية والاستمرار في صون دواليب الانتاج، وتحقيق الغاية البناءة.

وحاله في ذلك حال قوى أعرابية بدوية أخرى انتشرت على مدى مساحة البلاد الاسلامية مشرقا ومغربا.

فالإمـــارات الـــبدوية (بـــنوقرواش مثلا) التي أقامت حماها في النواحي المترامية ما بين الشام والعراق ، كانت اعتراضات تمدينية ايجابية, تندرج ضمن سياق حضاري كان يحتضر وينهار. إذ كانت القيم تعاني من التهجير المعاكس في اتجاهين متعارضين :

قيم البادية تنزح نحو الحاضرة لتتجسد في صورة فجاجة مدنية وحـــرمانا نفســـيا وماديا،وضغينة اجتماعية ورهقا روحيا ووجدانيا عـــبرت عنه انفجارات شتى، لعل فتن طوائف العيارين كانت واحدا من مظاهرها.

وقيم الحاضرة التي كانت تلوذ بالبرية, في تقهقر, قد لحقها رهق التعقيم وخذلها التسييب الذي لم تلبث المعايير معه أن اختلطت وفقدت مضامينها، بل لقد انقلبت تلك المعايير ، واكتسبت قيما مضادة تماما لما كانت تمثله وتعكسه .

وهكـــذا انخرطت مجتمعات المسلمين من جديد في سلك التغالب وتحقيق الشخصية الانعزالية وحفظ الوجود المنكمش على وجه باتت وسيلته هي الشراسة والفتك بالغير.

لقـــد عـــاش صـــدقة أمـــيا, يمتلك مراصيد المال وينتقي الكتب, ويقـــرض الشعر بالسليقة, ويتحلى بأخلاقيات المتمدنين، وينافح عن ثقافـــة (الـــرجولة)، لكن رحى الصراع داهمته، وجرفته في دوامتها وانتهـــت بأن أردته، وبوفاته انتهت تجربة نموذج وسيط لكيان شبه سياســـي تمازجت في صوغه قيم العصبية في تجلياتها البدوية، وقيم المـــثاقفة في صورتها الإفتعالية الفجة، ليبدأ شكل صراعي جديد بين فواعـــل التوحش وفواعل التمدن، سيكون فيه الحسم لفائدة الانحطاط والجمود على حساب الحضارة .

وسيســـجل الـــتاريخ من صور هذا الصراع، وفي شتى الأقطار الإسلامية، ملاحم انتحارية مفجعة يكون ضحيتها الانسان المسلم الذي وجـــد نفسه يهوي فجأة من شاهق الحضارة إلى الحضيض، وسيكون حـــظ بلاد المغرب العربي والأندلس من هذا الصراع كبيرا، وهو ما سيلهم بوقائعه التي أخذت شبه منوال تحولي انكساري ، قريحة مفكر مفجـــوع بمآل مدنيات الإسلام ، هو ابن خلدون ، الذي صاغ أسس نظريـــته فـــي ظاهرة التبدي والتحضر -كما أسلفنا- على ضوء ما عايش من ممارسات كابدها الإنسان المسلم في عصور انحداره.

وعلى مثل هذه الحال من الأمية التي عاشها صدقة ، كان يعيشه قادة وسلاطين مسلمون آخرون عاصروه أو أعقبوه.

لقـــد كـــان الأمير قرواش, وهو أمير الاعراب في بلاد ما بين العراق والشام, على جهل بالدين سافر, إذ نجده يجمع بين الاختين في

زواجه، وتلك حال تؤكد ظاهرة التوحش ,والبعد عن ثقافة المديـــنة ، تلك الثقافة التي كان جوهرها الدين والتنوع المعرفي.

ولقد رأينا بعض السلاطين العجم يحيط نفسه بزمرة من أصحاب الثقافة العربية, ليتلقن منهم قيمها, وذوقها, وبيانها..ترقية لمستواه من المدنـــية واستكمالا لعدة الرئاسة ، إذ أضحت الرئاسة تقرن في يدها الصـــفة العسكرية بالصفة الثقافية تعزيزا للجانب الشخصي, وإضفاء للحرمة على السلطان..

وبات امتلاك الثقافة أمرا ممكنا ، بانتقاء المثقفين ومن يعرضون أنفســـهم لـــيكونوا طرفا من زينة السلطان. إنها مرحلة الاستهلاك. استهلاك الحضارة ، التي أعقبت مرحلة صنعها وانتاجها.

ولقـــد كانت الحاشية تضم أهل الأدب والفقهاء,جنبا الى جنب مع المضحكين وأهل اللهو والطرافة..

وإنـــه لمـــن اللافت للإنتباه أن ترجح بين السلاطين والحكام كفة اللهو والتهتك على كفة الجد والوقار في ذلك العصر , بل وحتى في مـــا قبله من عهود , فبعد أن كانت سيرة الرشيد تعتبر نموذجا لنوع مـــن الـــتوازن والإعتدال في هذا الشأن, إذ مات وهو على صهوة حصـــانه يتفقد الثغور ويقوي من روح الفتوح ويوسع من دائرتها ، انغمس الحكام المسلمون بعده أكثر فأكثر في المتعة ، وظهرت ثقافة

الترفيه وراج فقه الاستمتاع ، ويدخل ضمنه طبعا فتاوى تحليل النبيذ وهلم جرا.

بل إن عدة الترف, ومنها فواعل الاضحاك، لم تعد تتهيأ في ظل هذا التقهقر، لا للخليفة ولا حتى للسلاطين والولاة , نتيجة النضوب الحاد للثروة, واختلال شروط الأمن ،وفقدان وازع الطاعة, واستحكام روح الانتقام، واستعار نار الفتن في الأوساط .

ولقد رأينا في بعض الأطوار لجوء الناس بأموالهم إلى الأحياء السلطانية , بل وإلى مجاورة دارالخلافة في تخير أماكن إقامتهم, وذلك هربا من أعمال الغصب, لكن مداهمات اللصوص والفتاك والجند الغاضب كانت تستهدفهم حتى هنالك ، بل لقد كانت تشمل دار الخليفة ذاتها, فتنهب امتعتها ومدخراتها ، كما حدث ،مثلا، على يد جيش طغرلبك، حين نزل بغداد، وتصادم مع السكان...

لقد بدا لنا القرن الخامس قرنا غروبيا حقا , غلبت فيه أدواء التحلل والفناء على دينامية التماسك والحياة..

وحدث على المستوى الثقافي والتنويري ،ازدواج معرفي وازى ذلك الإزدواج الذي رأيناه يميز المستوى السياسي من حيث بروز ثنائية على مستوى المؤسسة السلطوية ، إذ تناظر الخليفة مع السلطان.

الشخصية الجزائرية بانوراما المشهد الحضاري لميلاد الدولة الحمادية

فقد رجحت الثقافة الشفوية -ثانية- من خلال رجحان الطبقات الشعبية وطفوها على السطح بظهور تلك الكيانات والحركات السياسية التي كانت الأوسط البدوية والشعبية تسهم وتفاعل بها الأحداث والواقع من حولها.

لقد أفرزت تلك الأوساط قيمها وثقافتها واصطنعت ضمن محيطها, خطابها المميز وفنونها المعروفة , وانزاحت بالمخيال والذوق نحو قيم المشافهة واعتماد اللحن على حساب الفصاحة..
وسوف يتبلور نتيجة ذلك الجنوح الإرتكاسي مرصود فني وجمالي من الشعبيات السردية والذي كانت أعمال التغريبة الهلالية, وحكايا ألف ليلة وليلة, وملاحم عنترة , وسيف بن ذي يزن, وغيرها, من عيونه الفنية.

لقد انفسح المجال واسعا أمام ظهور الشخصيات السوقية، والقادة الأميين, والزعماء الشعبيين الذين كانوا لا يخلون من شي ء من الاحساس بالمسؤولية , أو ممن كانت الظروف تزج بهم في معمعان المطاحنة السياسية والعسكرية والسلطوية من غير أن تكون لهم العدة الثقافية التي تساعدهم على النهوض بالتسيير والتنفذ وتثبيت السلطان المدني في المجتمع.

لقد باتت ضرورة التبليغ والتوجيه والتحكم السلطوي تحمل البطانة والمحيط على اصطناع الخطاب الشعبي، سواء في شؤون التسيير والإدارة أو في مجالس المؤانسة والإمتاع.

لقـــد كـــان مثلا ابن تاشفين القائد المرابطي الكبير ،لا يستسيغ المطارحـــات البيانية في مكاتباته مع الأنداد ،إذ كان وضعه -بوصفه عســكريا يواجه الواقع من خلال العدة الحربية- يجعله في غنى عن تدبـيج القول،خاصـــة وأنه كان رجلا عمليا يحرص على ألا تحمل رســائله ما يستغلق عن فهمه من إنشاءات كتاب وأمراء البيان الذين كان ديوانه يحويهم.

إذ الفعـل فـــي مراحل بسط السيادة ، كما كان الشأن في عهده، يظــل مـــنوطا بالحمية وبالحسم في الموقف وفي الخطاب، فالأولوية تغدو للإنجاز والإجهاز.

وكـــان العديـــد من أمراء البادية في المشرق أميين ، يتذوقون البلاغة بفطرتهم ، ويحرصون على أن تحفل مجالسهم بفنون الإنشاد والسماع.

لقد أضحى وازع أولئك البداة الذين امتلكوا الثروة أن يحيوا تقاليد كانـــت هجرتها البادية منذ أمد بعيد ، لأن المدنية في عهود الازدهار قد اصطنعت فنونا ورسخت تقاليد مستجلبة من أمم أخرى ، وهو ما غطى طويلا على ثقافة البادية.

تـــرى هل كانت الذهنية البدوية تنتقم لواقع الجحود الذي عوملت بـــه تلـــك القيم أم أن مزاج أولئك الحكام البدو قد حن إلى الفطرة ، فاهتدى إلى التعبير عنها على ذلك السبيل.

وبإلقاء نظرة عامة حول الكيانات السياسية التي كان يديرها قادة أو ســـلاطين وزعمـــاء أمـــيون عبر الخريطة الاسلامية في القرن الخـــامس, ومـــا تلاه , نستبين علة ذلك التراكم الثقافي الشعبي الذي كانـــت المـــرحلة منخرطة في إشاعته واعتماده بديلا او رديفا لثقافة المدينة التي لبثت تنزع، منذ حين ليس بالقصير، وباطراد محسوس، نحـــو الخوصصـــة حتى آل الأمر إلى ظهور ثقافتين : ثقافة العامة، ولسانها عامي أو جانح نحو العامية , وثقافة الخاصة ,ولسانها فصيح متعلم ومرتبط بقيم العراقة والمدنية.

بل لقد رأينا البيئة الأندلسية مثلا توسع لدائرة الذوق الشعبي منذ وقـــت مبكر, لتصله بطبقات المتأدبين , وبجمهور الخاصة، وهذا من خلال ازدهار الموشحات والأزجال الشعبية السائغة..

ولا يعنـــي هذا أن القرن الخامس كان عقيما على صعيد ظهور الألمعـــيات وتحقيق المنجزات العلمية والمؤسسية , بل لقد رأينا هذا القرن يشهد ميلاد الأكاديمية العتيدة المعروفة بالنظامية, والتي كانت مســـتقطبا مثالـــيا للخـــبرات والفذاذات العلمية من كافة أرجاء العالم الاسلامي..

ويهيأ لنا أن الجانب الأكثر دلالة في موحيات ذلك الانجاز العلمي المرموق الذي شكلته النظامية , يعود الى الروح والهمة التمدنية التي حققـــت مثل ذاك المشروع في زمن عاصف بالفتن، زمن كان حربا على كل مظاهر المدنية والاستقرار وفي مقدمتها الثقافة..

لقد كان العنف يطال المساجد , ومرافق التدريس, والمكتبات, بل إن النظامية نفسها سيشملها عسف الفتن, وسينال منها الحريق في بعض أطوارها .

والظاهر أن نظام الملك قد شاد مدارس أخرى خلال تطوافه في البلاد, أو أن بعض معاصريه من السلاطين قد حذا حذوه فشاد المرافق التعليمية على مستوى ومنزلة ما شيد هو في بغداد.

وربما حملت مؤسسات تعليمية أخرى الإسم ذاته: النظامية , فقد ذكروا أنه كانت توجد بنسابور مدرسة النظامية , وقد درس بها الغزالي في بعض أطوار حياته..

إن اسم هذه المؤسسة العتيدة يرتبط باسم موجدها وهو الوزير نظام الملك, ذلك القائد العسكري الاستراتيجي المحنك الذي ساقه المعترك الى الحاضرة بغداد، شأن كل الوجهاء عصرئذ, لينشئ بها تلك الجامعة ويستقدم اليها نبغاء عصره, أمثال أبي حامد الغزالي, وابن عقيل الحنبلي, والشاشي وآخرين، والتي سيؤمها من الطلبة ، ومن كافة أرجاء العالم الإسلامي ، كثير ممن سيقدر لهم أن يلعبوا أدوارا في بيئاتهم الأم ، ولعل ابن تومرت القائد المغربي ، ومؤسس آخر امبراطورية في بلاد المغرب والأندلس ،أن يكون واحدا منهم.

لقد رأينا انتعاشا ملموسا يعاود العمران في العهد السلجوقي الأول، إذ عمرت مدن كان الخراب قد أصابها , واسترجع الناس، إلى

حين ،الأمل في رشاد الدولة، وتحولت الخطبة في بلاد الشام إلى الخليفة العباسي , وأضحت الشكاوى الاجتماعية والتظلمات ترفع الى السلطان.

فالرجاء في تجدد روح الحكم وانبعاث الدولة قد أنعش النفوس, غير أن فواعل الدمار كانت من القوة بحيث غدت مظاهر الارتياح والتفاؤل مجرد اعتراضات أو فترات صحو تتخلل حال الغيبوبة التي كانت تكبس على الأمة..

لقد سقط الوزير نظام الملك نفسه بطعنة صبي باطني, دخل عليه خدعة, متظاهرا بأنه أقبل يستغيث من معتد وهمي , ليغرس في صدر الوزير خنجره.

على أن المناخ العام للمدن والمراكز الحضارية , سواء منها العريقة (بغداد ، دمشق، الخ..) أو المستحدثة (بجاية- المهدية – القاهرة..) كان يحافظ على مستوى من أدبية البيان العالي , وهذا بفضل ظاهرة الترحل التي نشطت تسقطا للعلوم في مظانها ومراكزها , على أن أهمية الترحال كانت مناطة بتحقيق مطامح تضيق عنها البيئة المحلية.

فالرحلة في ذلك العصر كانت غالبا ما تكفل الخلاص من العنت السياسي أو المادي ، وتهيئ ملافاة الأنداد والعلماء ، وتقي من

مخاطر الاصطراع والفتن التي تنشب بين المتساكنين في اطار صراع الكتل والعصبيات .

وكانت الرحلة تتيح أيضا استحصال النفع المادي والروحي الذي كانت المواسم والمشاهد تتيحه للرحالة وذوي الحاجة..

كما أخذت الرحلة أحيانا طابع النزوح الجماعي, إذ بتقهقر الحضارة الاسلامية في أصقاع كثيرة (صيقلية - قبرص ..) منذ وقت أسبق ، تراجعت المدنية الاسلامية وتحولت جالياتها عبر النواحي والأصقاع ، متخلية عن حظوظ مادية وأدبية كانت تتمتع بها، ناشدة تحصيل حظوظ أخرى عبر جهات أخرى من دار الاسلام.

لقد كانت الثقافة من خلال ظاهرة التنقل والهجرات تتركز في الحواضر التي كان الاستقرار فيها يغري بالإقامة..

وأضحت أقاليم الشمال فيما يتعلق بالمغرب العربي مستقطب الحركات التعميرية والهجرات, بعد أن ظلت الصحراء، ومنذ عهد الفتح، فضاء الحل والعمران التوطني (القيروان - فاس -توقرت- تاهرت - ورجلان - سجلماسة...).

وسيطلب الناس الأمن والقرار تارة أخرى في الفيافي والواحات, حين سيتغلغل الغزو الصليبي النورماندي والإسباني عبر الثغور الشمالية وتحدق مخاطره بمراكز المدنية هناك..

وذات الأمر رأيناه في المشرق, فحين زحف الروم والصليبيون على شواطئ وثغور الشام وفلسطين ومصر، انحسرت حركة الناس متقهقرة نحو أقاليم الداخل , وكانت في ارتدادها تطلب أولا المدد والغوث من الداخل , ثم ما لبثت أن استقرت حيثما اتفق لها الاستقرار في الفضاء الخلفي بعيدا عن العدو وتجنبا لمساكنته.

ومثلما كان للرحلة تأثير في عملية تنشيط الثقافة والعلم وحفظهما من مغبة التلف الكلي الذي كان يتهددهما نتيجة التردي العام الذي أصاب الأمة منذئذ، فقد كان لوجود العناصر المستنيرة على رأس السلطة في بعض الدول ووجود بطانات من المثقفين قريبا من الحكام في غالبية الدول الاسلامية يومئذ، أثره الإيجابي في صون الثقافة والأدب , وتوسييع نطاق الفنون ..

وحسبنا أن نذكر إلى جانب نظام الملك , وزيرين آخرين (وهما بويهيان) كانت رعايتهما للعلوم والآداب نابعة من اشتغال ذاتي أصيل.

اذ كان كل منهما أديبا أريبا..وهما ابن العميد وابن عباد..

وتذكر الرواية ان الأول تلقب بذي الوزارتين لتضلعه في الوظيفتين , واضطلاعه بالمهمتين السياسية والادبية.. وأن الثاني قد تلقب بالصاحب للصحبة التي جمعته مع الأول على عهد وزارته..

لقد كان ابن العميد صارما في منح أحقية الانتساب إلى منتداه الأدبي، ومع ذلك فإنه سلك سياسة تحفيزية روجت للأدب , وعززت الإهتمام به.

لقد كانت الكتب ترفع إليه من شتى أرجاء المملكة , وكانت عطاياه تحفز القرائح وكانت تقريضاته للأعمال الأدبية والأحكام التي يقومها بها تقوي من حركة البحث والابداع وتوسع من نطاقها.

ومن أظرف ما يحكى عنه ان الخوارزمي ارتحل اليه بقصد الانتساب الى حاشيته , وحين انتهى إلى بابه طلب ابن العميد الى الحاجب أن يعلم الطارق بأنه لا يسمح بالانضمام إلى مجلسه الا لمن كان مرصوده من المحفوظ عشرون ألف بيت, فقيل إن الخوارزمي وقد أبلغ ذلك، طلب بدوره من الحاجب أن يسأل سيده: هل يريد أن يكون هذا العدد منظوما في النساء أم في الرجال، وذلك تدليلا على سعة اطلاعه وإظهارا لأهليته لأن يجالس الوزير..

وذات الحال كان عليها ابن عباد..اذ كان يستقطب النوابغ , ويسند إليهم المسؤوليات مثلما صنع مع العلامة عبد الجبار المعتزلي , الذي ولاه القضاء على الري وعلى أعمالها.

وفي ما يخص الخلفاء, فإننا وجدناهم , رغم حالة الخور التي كانوا عليها, يلعبون دور المرتكز والضامن الروحي لمنظومة القيم، كما بلورتها السيرورة التاريخية في جدلها العقدي والتمدني.

لقد رأينا كيف كان إسهام بعض الخلفاء في الحياة العامة كبيرا من خلال الإصلاحات التي حاولوا ادخالها على السلوك والعلاقات والمعاملات, بل وعلى المعتقد أيضا.. فالقادر يعد بحق من المجددين الذين أعادوا للحاضرة بغداد جوا نظيفا من الأخلاقية, ساغ فيه للناس من جديد مذاق التمدن والتحصيل العلمي والتهذيبي وحب الحياة.

وكذلك كان حال(الحاكم) العبيدي , على ما شاب اجراءاته من تقلبات مزاجية متطرفة..

لقد بنى الحاكم (دار العلم) وأباحها للفقهاء والدارسين على اختلاف أغراضهم..وحاول ضبط السلوك الاجتماعي , فحصن المرأة, وجعل التعامل معها يتم من وراء حجاب..وستتصدى امرأة من حريمه هو بالذات, لتدير دفة الحكم وسياسة الناس بدهاء وحصافة، ولم تكن هذه المراة سوى أخته ست الملك..

وبوسعنا أن نستعرض اسماء أدباء ومثقفين يمكن أن يعدوا من ملامح تلك الحقبة, من أمثال الرضى والمرتضى, وقد كان لهما دور تأثيري كبير, إذ كانا أديبين ذائعي الصيت, وكانت لهما مسؤوليات دينية واجتماعية جعلت اشعاعهما يسري في المحيط..

لقد توليا تباعا مهمة ادارة نقابة الأشراف الى جانب وظائف أخرى كالقضاء ورد المظالم...

كما أن طائفة الفقهاء وأهل الفتوى , أمثال الغزالي, والشاشي, وابن عقيل, والكيا الهراسي, وغيرهم , كانوا يمثلون الوجاهة الشرعية والبيداغوجية , ليس في الحاضرة بغداد وحدها، ولكن وفي أقطار الاسلام عامة ، من خلال ما كان ينشره عنهم طلبتهم وتلاميذهم من جميل الذكر ،ومن خلال رواج مؤلفاتهم ، وتنقلهم في الأنحاء..

لقد ارتحل الغزالي من طوس لينتهي إلى دمشق والقدس، وليكون أصغر محاضر في رحاب النظامية،(كان عمره دون الثلاثين حين انتصب للدرس بها).

وسيكون كتاب الإحياء الذي ألفه في دمشق، بعد مراس تدريسي وفكري وسياحي عميق، مدونه قيم، شاءها الغزالي أن تستوعب الأخلاقية العامة للإسلام كما تدبرها في ذلك العصر الذي تداعت فيه أركان مدينة المسلمين.

إن محتوى ذلك الكتاب يعد ضربا من (الايديولوجيا) الأخلاقية والعملية والروحية التي جابه بها عالم مسلم تصدعات عصره البليغة، فجاءت المواعظ مبطنة بحيرة، متشحة بهم حضاري ، لم يجد حياله الغزالي غير مشاعر التأمل سبيلا لإرساء قابلية المصابرة والمكابرة والإحتمال..

وسيكون هذا المنهج التدويني، العقدي، في بلاد المغرب الاسلامي وسيلة بث الدعوة الموحدية التي كان زعيمها الروحي ابن تومرت

واحدا ممن تتلمذوا بالمعاينة أو السماع عن الغزالي، واحتكوا بتعاليم النظامية ، حيث كانت الرحلة قد قادت هذا الفتى المغربي الى بغداد وأوطان أخرى ، ليعود مشحونا بقيم التغيير والتأصيل.

لقد حاول ابن تومرت أن يجعل من مدونته (أعز مايطلب)، منهاج السير والعمل الذي يميز أصحابه والتابعين لهم في المعتقد والرؤية.

وسينزل القشيري، وهو أحد وجهاء ذلك العصر (ق.5هـ.) بغداد بمناسبة حجة وسيزور النظامية ليعطي دروسا في الوعظ لطلبتها، وسيكون كتابه في التصوف مرجعا آخر تستمد منه طوائف واسعة من أهل الإسلام بعض السلوى والعزاء حيال ما كانت تدهمهم به المرحلة..

كان ذلك شأن جميع النبغاء وأصحاب المهارات ممن كانت تقودهم الظروف الى بغداد..اذ كانوا ينزلون إما في مرفق تدريسي ، أو في المسجد ، حيث يلتقي العلماء بالناس والطلاب ، ويعرضون عليهم بضاعتهم تحت السواري ، أما المبرزون منهم فكان التقليد يقضي بإتاحة صدارة التدريس لهم في أهم المؤسسات العلمية والمرافق التعليمية القائمة يومذاك، مثل النظامية.

ولم يكن العصر يخلو من العنصر النسوي المبرز في العلوم، والآداب..

ويكفـــي أن نذكــر اسم المحدثة كريمة المروزية، راوية صحيح الـــبخاري بمكـــة، والتي كان انتهى إليها علو الاسناد في زمنها كما يقول ابن الاثير،وقد توفيت عام 464 هـــ.

والفاضـــلة الاخـــرى فاطمـــة بيت الحسين بن فضلويه، وكانت واعظـــة، و لهـــا ربـــاط تجـــتمع فيه الزاهدات، وكانت وفاتها عام 521 هـــ.

وسنرى من الاندلسيات والبجائيات نساء يتصدرن المجال الثقافي والتعليمي.

لقـــد كـــان العصر يجنح بالامة في حدة واندفاع ، نحو الإستكانة الاجتماعـــية والإنخذال الحضاري، وذاك ما سوغ للناس تقبل القيم السلبية وكيفهم على تقبّل الانسحاب والتخلي والانزواء..وكان لهم في التصوف وملازمة الرباطات ملاذا تناسوا فيه الى حد، واقع الإنهيار الفظيع الذي كان يهوي بهم في الحضيض..

قراءة في سيميائية الأعلام.

عرض كرونولوجي للواجهة الثقافية..من خلال مشاهير العصر:

قصـــدنا هـــنا إلى بسط الوقائع التي يمكن أن تستدعيها إلى ذهن القـــارئ أســـماء بعـــض المشاهير الذين عاشوا في القرن الخامس وشـــطر مـــن الســـادس، وعرضـــنا تلك الوقائع والأسماء في شبه

الشخصية الجزائرية بانوراما المشهد الحضاري لميلاد الدولة الحمادية

كرونولوجـــية على النحو الذي صاغها به مـــصدرها: كتاب الكامل لابن الاثير.

نعـــتقد أن القارئ يستطيع أن يتمثل رؤية للواقع المدني العام من خلال تدبره للقيم الفكرية والثقافية التي مثلها هؤلاء الأعلام وجسدتها آثـــارهم ، إذ نحســـب أن فكـــرهم قد ظل يؤثر في روحية الأمة إلى الـــيوم، خصوصا وأن قطاعا معتبرا من هذا الفكر لا يزال يمثل في نظـــرنا مســـتوى مـــن الحيوية بتنا نعده عنوانا على حداثة اخترقت العصور واحتفظت بأصالتها ووجاهتها إلى اليوم.

لقـــد تعمدنـــا أن نرجح في هذا الجرد كفة الأعلام المشارقة ، اعتبارا لمركزية التأثير الذي ميز الفكر والثقافة المشرقية بالقياس إلى امتدادها الجغرافي والملي عبر الأرجاء.

علـــى أنـــنا ســـنفرد لاحقـــا كشـــفا آخر لمعالم ووقائع القرن الخامس،بصورة مفتوحة على الخريطة الاسلامية جملة، وعلى أبرز الأحداث التي عرفها هذا العصر ، أي القرن الخامس..

427 وفاة ابن شهيد الاندلسي.
428 وفاة مهيار الديلمي شاعر الشيعة، وقد صحب الرضي.
429 وفاة الثعالبي صاحب اليتيمة.
436 وفاة المرتضى

444تصــدر قـــيادة العياريـــن في بغداد مقدمان هما الطقطقي، والزيبق (مافيا بغداد).

484 وفاة البيهقي والدارمي.

494 وفاة المعري.

450 وفـــاة المـــاوردي قاضي القضاة ⇦ من المنظرين للدولة وسياسة الملك في الاسلام.

452 وفـــاة العتابـــي (أحـــد الوجهاء المحسنين) أودع مكتبة اردشير التي أحرقت بدار الكتب ألف كتاب .

456 وفاة سعيدوك ملك الجن ، وخروج النساء في بغداد لإقامة المناحة عليه مخافة أن يصيبهن أذاه كما أشيع، وكانت ضحكة عظيمة كما عقب ابن الاثير .

457 الشروع في تعمير النظامية: الجامعة الأكاديمية ببغداد.

458 وفاة ابن سيدة صاحب معجم المحكم (اندلسي.)

464 وفاة ابن زيدون.

464 وفاة كريمة المروزية المحدثة راوية صحيح البخاري بمكة والتي انتهى إليها علو الإسناد في زمنها.

477 الأبيوري يهنى شعرا بفتح انطاكية.

478 وفاة الجويني إمام الحرمين.

484 نكبة المعتمد بن عباد وملوك الطوائف على يد المرابطين.

485 وفاة نظام الملك على يد فتى باطني.

487 الغزالـــي والشاشي يحضران بيعة المستظهر، بعد وفاة والـــده المقتدي، والكيا الهراسي مدرس النظامية يجوز شتم اليزيد ، والغزالي يفضل الترحم عليه.

– حضـــور ابن عقيل وابى الخطاب، وهما من رؤوس الحنابلة ببغداد دروس الغزالي في النظامية.

488 وفاة المعتمد بن عباد بالمنفى في أغماة بالمغرب.

488 توجـــه الغزالي الى الشام سائحا ، وزاهدا ، وبها سيؤلف كتاب الإحياء.

492 احـــتلال القـــدس وذيوع قصيدة الأبيوري البكائية،المتفجعة بحادثة الاحتلال 500 . .وفاة ابن تاشفين مؤسس الدولة المرابطية.

505 وفاة الكيا الهراسي.

506 وفاة الغزالي.

507 وفاة الأبيوري ،والشاشي الفقيه الشافعي.

513 وفاة ابن عقيل .

515 وفاة الحريري صاحب المقامات.

521 وفـــاة ابـــن بـــرهان ، تلميذ الغزالي والكيا الهراسي ، والشاشي ،وكان بارعا في علم الاصول.

=وفاة فاطمة بنت الحسين بن فضلون، وكانت واعظة ،لها رباط تجتمع فيه الزاهدات.

=وفـــاة البطليوسي اللغوي شارح سقط الزند للمعري، وأدب الكاتب لابن قتيبة.

525 وفـــاة الشـــاعر ابراهيم بن عثمان الغزي (من غزة) وهو القائل:

ما مضى فات والمؤول غيب   ولك الساعة التي أنت فيها.

ولعل ما يلاحظ في نهاية هذا التطواف ، أن حال الانكسار والخمول التي كانت فواعل التردي والقهر تكبل بها المسلم، لم تكن المعطى النفسي والنزوعي الوحيد الذي يتلبس الشعور العام للمسلمين، فلقد كانت هناك دعوات وتوثبات عكستها أدبية انتقادية مريرة كانت تتوق الى مستوى من العيش والحياة تسود فيه قيم الكمال والشروط العلمية المؤهلة للنهوض بالواقع الاسلامي.

فالرؤية لم تكن سوداء كلها ، ولكن كانت بها بروق وبثوق للأمل والرجاء ، غير أن عوامل الضعف طغت على عوامل القوة ، مما كان له الأثر على وقوع الأمة آخر الأمر في درك ذلك المصير .

لقد ظل احساس الواعين من أبناء الأمة بالوضع الشاذ الذي بات يعيش فيه الإنسان المسلم يحملهم على التنديد بوضع المدرسة، وثلب المستوى المنحط للمدرسين ،وتحميل المعلمين مسؤولية تلك النتائج الوخيمة التي كان يفرزها ذلك الوضع الجانح باطراد نحو تكريس التردي الثقافي والحضاري.

وربما كانت أبيات الفالي التالية تعبر عن ذلك الواقع:

تصدر للتدريس كل مهوس ... بليد سمي بالفقيه المدرس
يحق لأهل الحلم أن يتمثلوا ... ببيت قديم شاع في كل مجلس
لقد هزلت حتى بدا من هزالها ... كلاها وحتى سامها كل مفلس[3]

---

[3]- لا تزال المدرسة عنوانا على كل ترد أو نهوض. وعلى قدر توفق الأمة في بناء المدرسة الصانعة لدعائم الحياة على قدر احرازها لكل مجد وعراقة .

لقد كانت المدرسة ومازالت وستظل هي صانعة المصائر ،وإن دورها لثابت، في تشكيل ذلك المسار الذي عرفته الحضارة العربية الاسلامية ، ماضيا ، وحاضرا، وستعرفه مستقبلا..فهلا وعينا الدرس..

البربرية ..التاريخ..والاجتماع.

ميلاد الدولة الحمادية

في مبدإ القرن الخامس وفي أواسط القرن السادس الهجريين عرفت الجزائر قيام كيان سياسي وحضاري عد أول تجسيد محلي للدولة الجزائرية بخصوصياتها الإسلامية البربرية.

لقد أدى تنقل العبيديين ، تلك الدولة ذات المطمح الأمبراطوري ، نحو المشرق، إلى ظهور الدولة الزيرية التي كانت تحكم افريقيا (تونس) وامتداداتها الشرقية (الجزائر) والصحراء وطرابلس..

لقد كانت قابلية التفكك تميز الروابط والعلاقات بين المركزية العبيدية التي جعلت من القاهرة حاضرتها، وبين الأقاليم المغاربية التي تحولت عنها والتي كانت تعدها مناطق أصل، في خارطة نفوذها..

فحينما تحرك العبيديون قاصدين مصر ، كانت الغاية السياسية والمذهبية تصور لهم من الآمال والأحلام مايبرر ذلك الارتحال

الأهلـي الشامل الذي تحولت به الدولة بمختلف مؤسساتها ومرافقها وبناها المادية والأدبية من افريقيا الى مصر وكانت النتيجة المتوقعة لذلك الإنسلاخ السياسي والإداري الذي فصل بلاد المغرب أو جزءا منها عن العبيدية ، هو افتقار مناطق شمال افريقيا الى الغطاء التسييري الذي كانت مؤسسات الدولة العبيدية ودواليبها تكفله.

حقا لقد خلف العبيديون وراءهم محلية زيرية اضطلعت بشؤون الإدارة والحكم وضمان النظام والأمن في البلاد ، وجسدت روح السلطان العبيدي إلى حين ، فقد مضت فعلا، سنوات وأمور البلاد تسير في كنف النظام والإستقرار، ثم حدث الإنشطار.

لقد انقسمت الأسرة الزيرية على نفسها، واستقل الفرع الحمادي منها بنواحي الغرب، واتخذوا من القلعة حاضرة لإمارة ظلت تداري الظروف نشدانا للحياة والبقاء..

لقد كان المغرب العربي واقعا في قسمه الغربي تحت سلطان بني عامر الأندلسي، فقد اصطنع بنوعامر إمارة مغراوة الزناتية التي كانت قائمة في تلك النواحي ، وكان حتما أن تحكم جدلية التنافي العلاقة بين الطرفين: إمارة مغراوة والزيريين .

وفي خضم ذلك الصراع كانت هناك إمارات وليدة وأخرى قائمة لا تفتأ تحجز بين مغراوة والدولة الزيرية وتحول دون

صدامهما وتطاحنهما، (من تلك الإمارات مثلا، إمارة بني توجين بشلف وشرشال والونشريس).

وكانت الرقعة الوسطى تابعة للعامل الزيري حماد الذي ظل ينافح عن حقه في الاستقلال، فقد نشط في رد عدوان مغراوة عن الدولة الزيرية، وبذلك نال عمل أشير حيث سيؤسس القلعة في ما بعد ، وحين عصفت الهزات الداخلية والقبلية بالدولة الزيرية ، تنازلت المركزية لحماد عما في يده من أعمال ليسيرها في شبه استقلال، لكن ظهور حماد كحاكم طموح، وعسكري استراتيجي جعل المركزية الزيرية تتوجس منه خيفة ، فسعت لإستيعابه دون جدوى.

فلقد أعلن استقلاله من طرف واحد، وجسد ذلك الإستقلال في خطوات عملية متطرفة، إذ قتل الرافضة ، وأظهر السنة، ورضي عن الشيخين ، ونبذ العبيدية وراجع العباسية ، محدثا الشرخ بين المغرب والخلافة العبيدية المستقرة منذ حين في مصر ، فكان لابد أن تزحف إليه قوات الدولة الزيرية وتداهمه..

وبعد حصار طويل كاد أن يقضي على آمال حماد, أدركه الفرج، إذ مات فجأة باديس سلطان الدولة الزيرية ، وتراجعت القوات الزيرية التي كانت تحاصر حمادا , وحدث ما يشبه التفاهم وأعيدت الصلة بين جناحي العائلة، وتنازل المعز لحماد عن أقاليم المسيلة وأقطارها، وسارت الأمور في اتجاه يعمق الاستقلال السياسي للدولة الناشئة ، الدولة الحمادية.

الواقع التاريخي العام..وميلاد دولة بني حماد

ان القاء نظرة بانورامية على الواقع التاريخي العام لتلك المرحلة, وعلـــى مقدراتها الاستراتيجية والحضارية، سيعطينا صورة تقريبية ليس فقط عن البنى والكيانات السياسية والادارية (دول – امارات – خلافات – امبراطوريات) المتفاعلة في ذلك الواقع , ولكن سيكشف لـــنا أيضـــا عن العوامل والكيفيات والشروط التي كانت تحرك ذلك الواقع وتتحكم في آلياته وتحدد نتائجه.

البساط الإقليمي الإسلامي :

مما لا شك فيه أن واقع الترهل الباكر الذي اعترى كيان الخلافة العباســـية في بغداد، حمل معه عوامل تجدد تجسدت في دعوة دينية سياســـية فاطمية تجرثمت بالمشرق منذ أن أطيح بالخليفة علي(ر)، وظلت تتذرع بالأسباب وتهيء الخطط والوسائل، وهذا سواء في بيئة الحجـــاز، حيث ظلت العلوية دعوة سرية، تبحث عن المجال الحيوي لنشـــر نحلـــتها، أم في بيئة الشام ومصر، حيث كان الدعاة العلويون يجدون المنعة والمأوى ، بعيدا عن الرقابة المركزية التي كانت بغداد حاضرة للسلطان، ترصد بها كل نشاط مناوئ للخلافة العباسية.

لقد استهوت رجال الدعوة العبيدية بلاد المغرب بما تتميز به من بعـــد عـــن السلطان وانفساح اقليمي غير محدود وقابلية عاطفية لآل النبي لدى السكان لاتخفى.

لقـــد أيقـــن العبـــيديون أن سني السرية قد حرثت الأرضية لهم وهـــيأتها للإثمـــار ، فانتقلوا اليها واستطاعوا أن يتجاوزوا الضوائق

والمخاطـــرات التي تصدت لهم في البيئة المغربية ، تلك البيئة التي ظلت منذ الوقت الرستمي ملاذا استراتيجيا مهما تأوي اليه الحركات السياسية المتمردة على سلطان الخلافة في بغداد..

ان الفضـــــاء الإقليمي الشاسع الذي اشتملت عليه جغرافية الدولة الإســـلامية ، والذي كان ما زال يتوسع في ذلك العهد ، رغم بوادر الانحسار التي سجلت هنا أوهناك على أطرافه ، بقدر ما كان له من الايجابية والحيوية بالقياس الى ازدهار المراكز والحضائر الأم داخل نطـــاق الدولـــة ، بقـــدر مـــا كـــان له من السلبية على وحدة الدولة وتماسكها .

لقـــد كانـــت الأقطار التخومية والأقاليم القصية الإسلامية بيئات مواتية للثورة والتمرد والإنعزال والاستقلال ، بفعل العامل الجغرافي الذي كان يشجع على الانشقاق .

إذ كانـــت وسائل الضبط والاتصال والهيكلة والتنظيم المحدودة والاجـــراءات الظرفـــية المتقطعة ، لاتكفل للمركز / بغداد أن يبسط نفوذا حقيقيا مستديما ، قارا على أرجاء الدولة ، بل لقد أضحت كثير مـــن التفعيلات المركزية للأوضاع والمجتمع تساعد على وقوع تلك الانقسامات والتفتتات التي كانت الخلافة لا تستطيع مواجهتها بما في يدها من امكانات الجند والتجنيد الناقصة، ولما يميز سلطانها من نفوذ لا يزال يتدنى باستمرار تقريبا.

واذا كان ميلاد الخلافة العباسية كان يقتضي -تحقيقا لوجوده- استئصال الخصم الأموي وافنائه ، فإن انبثاق خلافة أموية مضاهية ومتمكنة في الأندلس ، ما كان ليقع لو لم يساعد عليه ، ضمن فواعل أخرى، العامل الجغرافي المترامي.

فالشرط الفضائي المفتوح كان من أهم عوامل التجدد والتشكل السياسي الذي ظلت البنى الادارية والاجتماعية الاسلامية تعيشه. كما كان أيضا من أهم أسباب التهدم والتفكك المقوضة للدول ، وذلك لعجز المركزيات عن التحكم في الأواصر والأطراف.

جدلية الشكل والتشكيل:

واذا نظرنا الآن إلى طبوغرافية الكيانات السياسية الاسلامية في دينكم القرنين، أمكننا أن نلاحظ أن هناك حالات من التشكل اكتسبت مع الزمن صفة الوضع القار، وحالات أخرى كانت حركيتها العارضة في الزمان والمكان تضفي عليها صبغة التشكل السياسي الطارئ الذي يسعى إلى تحقيق الاستقرار والتماهي في بنية ثابتة ذات مشروعية..

من هنا يمكن القول إنه في ظل الوضعين السياسين : الوضع المتشكل الراسي القار، الذي أضحى في الوجدان الديني والسياسي مرجعية أصلية، تحرك الحياة من مستويات عدة ، ونقصد بها دولة "الخلافة" بوصفها كيانا سلطويا وروحيا راسخا تتماهى فيه قيم

ومرموزات مرتبطة بالوجود الجمعي ومتجسدة في عواطف ومفاهيم موحية، تحيل عليها مصطلحات من قبيل الأمة - البيضة- ودار الاسلام.. والوضع الطارئ الذي ما تفتأ تسببه اعتمالات تستمد مبرراتها من عناصر التشكيل الداخلي أو الخارجي أو منهما معا.. ضمن هذين الوضعين قلت كانت دار الاسلام تحقق مورفولوجية كينونتها السياسية والمدنية ، وتصنع مضامين هويتها الحضارية، من خلال جدل التفاعل القائم بين الدول والإمارات والهويات الجماعية التي كان يولدها المخاض التاريخي والحضاري ، ويصوغ منها بيانية الإنقسام والإلتئام الناشئة عن واقع تسلسل المدافعات العسكرية والسياسية والفكرية، وما يرافق تلك المدافعات من عوامل ذاتية وموضوعية توجه المنحى الإجتماعي الاسلامي العام في تلك الحقبة..

فالتشكل كان قوامه خلافة مركزية عباسية -أما- تتلقى أسباب الحياة من داخل وخارج فيزيولوجيتها الإدارية والاجتماعة والاقليمية، وهذا من خلال امدادات القلب والأطراف ، وخاصة مناطق فارس وآسيا الوسطى،وما وراءها.

وكانت هناك خلافة صقعية، آل بها الأمر إلى أن تتشرذم وتتمزق ،هي خلافة بني أمية بالأندلس التي أضحت مدنا وأقاليم مفككة تعاني توترات البقاء من خلال المناورة الداخلية مع الجيران الأشقاء، والمغالبة الخارجية المتمثلة في العدو الصليبي. وستلفظ هذه الخلافة أنفاسها في القرن الخامس على يد قوة انبثاقية سترسل بها الصحراء في مد تشكيلي آخر قام به قبيل المرابطين..

وكانت هناك بين كياني الخلافة الأم : بغداد، والخلافة الصقعية : الاندلس ، خلافة ناشئة : هي العبيدية ،والتي مضت تجر ذيل سيادتها علـــى أقطار المغرب ومصر، متقربة بتحويل حاضرتها من المهدية الى الفسطاط ،من مراكز التأثير والاشعاع التي كانت تتمثل في أقاليم الحجاز وبيت المقدس ودمشق وبغداد..

والى جانب هذه الكيانات المحورية البارزة وفق تناسب متفاوت، كانت فواعل التشكيل دائبة في إفراز المتغيرات المادية والثقافية التي ستصنع مزيدا من الاحداث وتطبع المراحل وتحدد الصيرورات.

ففـــي بغداد كانت البيويهية، تلك الدولة التي رشحتها معطيات تاريخـــية لأن تضطلع بدور المرتكز السياسي والعسكري والثقافي للخلافـــة العباســـية حينا من الدهر ، قد آذنت بالإندثار، ليحل محلها تشكيل سياسي آخر هو السلجوقية.

وكـــان المحيط الجغرافي والسياسي لدار السلطان ببغداد ينحسر باستمرار لصالح كيانات وامارات تتوالد مثل الفقاقيع الصابونية هنا وهناك .

فقـــد قامـــت مشـــيخات لا ماهية سياسية لها إلا ماهية الإرهاب والسطو الجماعي كان يديرها شيوخ البدو .

وكانـــت امـــارة بني حمدان بحلب من أهم البنى السياسية التي حظيـــت بالاعتـــبار السياسي والثقافي ، وقد كانت هي أيضا عرضة لـــزعازع الغزو القرمطي، والمصرى : الطولوني والاخشيدي ، كما كانت الهلالية وفلول الأعراب تمارس ضغوطها على هذه الإمارة – الحمدانية-- وعلى غيرها من الحواضر، وسيتعمق التأثير الفاعل الذى كـــان لهـــذه القـــوى البدوية في بلاد المغرب العربي ، حيث سيلعب رحيل الهلالية الاستيطاني هناك دورا بارزا في تنشيط حركة واسعة من التشكيلات السياسية والثقافية ستمتد آثارها في تاريخ بلاد المغرب على مدى العصور..

وعلـــى المستوى الخارجي ، فإن الحمدانيين ظلوا منخرطين في حـــرب ضـــد العـــدو الرومي الذي كان يسعى الى تحقيق مزيد من الاختراقات العسكرية في دار الاسلام.

أما في الغرب الاسلامي فإن الخلافة العبيدية قد وثبت على دولة الأخشيد ،ووسعت من نطاق نفوذها على كامل افريقيا الشمالية، ثم ما لبثت أن طوقت الشام بالعسكر المغاربة الذين أخذتهم في رحيلها الى مصر، والذين كان تعدادهم يبلغ مئات الآلاف ،وراحت تتوسع ببأسهم فـــي المجـــال الإقليمي من حولها، وكانت غايتها استيعاب الحاضرة بغداد ليتسنى لها أن تفتك الرمزية القداسية ، وأن تحوز شرط تمثيل الأمة وقيادتها على مبدإ الشرعية الدينية والسياسية..

ولاشك أن الخلافة الأموية بالاندلس في هذه المرحلة كانت تعيش ساعة غروبها رغم أنها كانت تمتد الى داخل المغرب الاقصى سبتة -البصـــرة -فاس -وسجلماسة، تلك الأقاليم الزناتية التي كانت تتبع الخلافـــة الأندلســـية أو تسير في فلكها والتي ســيستردها يوسف بن بلكين[4] إلى حاضرة افريقيا العبيدية في إحدى خرجاته اليها..

لقـــد كانـــت عمليـــة التشـــكيل ، في خضم هذا الاطار الخلافي (خلافـــة) تفاعل مكونات الثبات، وتبلورها بصورة مطردة ، وعنيدة ..إذ كانـــت عوامـــل البـــثق السياســـي متوفرة ، وكانت آلية التحلل والتماسك تتحقق بواسطة الفعل العسكري.

فالمغالبة وسياسة التخضيع القهري هي وسيلة فرض مبدإ التساكن وضبط النظام وإرساء أسس المعايشة.. يضاف اليها التفعيل الفكري والمذهبـــي الـــذي كانت الدول تعتمده وتبرر به وجودها ، وتتذمم به إزاء رعياها وأقاليمها..

القوى الفاعلة..في عملية التشكيل.

والملاحظ أن نطاق كل خلافة، في ذلك العهد ، كان يحوز شرطا تحريكـــيا وتأثـــيريا قوامه تلك القوة الخام: القوة الثالثة ، الممثلة في الـــبدو أو في جماهير الريف غير المهيكلة ، والتي لم تفلح الدولة/ الســـلطان فـــي استيعابها، ولم تحسسها بأصالة عضويتها في كيان

- [4] بلكين اسم علم ، يكتب أحيانا بالقاف ، وأحيانا أخرى بالغين ، ويقال أنه جيم مصرية.

الدولة أو الأمة ، فخرجت تستجيب لكل داع يحشدها ويحدد لها أهدافا اغتنامية ، تحت هذا الشعار أو ذاك.

لقد كان السلطان يحوز الجند، أو كان الجند-على الأصح- يحوز الســلطان ، لتتشـــكل بذلـــك الطبقة الأولى المكونة للدولة، والمديرة للسياســـة العامـــة، وكـــان من جهة أخرى المجتمع المدني، وقوامه المـــثقفون والتجار ،وأهل الحرف ، وسكان المدن، أوالمتمدنون. هو الطـــرف المناظر للطرف الأول ، والطامح إلى مقاسمته الشأن العام والحكم والفوائد.

ومـــن هذين الإحداثيتين تمتد العلاقة الإستقطابية ، وتقوم حركة المدافعـــة والمجاذبة ، وتشترك فيها عناصر وقوى ذاتية وموضوعية ترسم باعتراكها مسار تاريخية المجتمع .

واذا كانـــت أرضـــية الاجتماع والعمران الخصبة إنما هي هذه الأوســـاط المدنـــية الفاعلة والمبدعة ، المتطلعة الى الاستقرار والى الأمـــن، لطبـــيعة معاشها الإنتاجي القار ووظائفها الحرفية والمدنية الثابـــتة أو شـــبه الثابـــتة ، فان الطبقة الأولى أي طبقة رجال الدولة والجند ، إنما كانت مضطلعة بدور المؤمّن للسلم الضامن للسكينة .

فالجند في انصياعهم للسلطان، إنما كانوا يوفرون لأنفسهم المناخ المناسب الذي تتحسن فيه أحوالهم، لذا كان حادث الخروج الى القتال

يمثل مناسبة تموينية يترقبها الجندي بأمل، وهكذا كانت الأموال تنفق عليهم خارجين إلى القتال وآيبين منه ..

وحيـــن كـــان يرتخي في روحية الجند وازع الانضباط، وتتهيج الأنفس، فتلك بادرة ينشد من خلالها العسكر التغيير الذي يحققون به عادة التوسعة المادية والمكاسب وتحسين الأحوال..

فبالفتـــن أضحى تاريخ الدولة الاسلامية يصنع حركته ومحطاته. ومـــا نراه اليوم هو من صميم الأمس تماما ، فالجهات والجماعات ، وحـــتى الأفراد لا يحسب لهم النظام حسابا ، ولا يلتفت إليهم إلا إذا شاغبوا ودمروا وأظهروا قوتهم.

فـــالحقوق في المجتمع الجزائري باتت تنال ويظفر بها الظافرون علـــى قـــدر مـــا يبدونه من وحشية في المطالبة ، أو قل في فرض الرأي.

فالتناظر بين الطبقتين المدنية والعسكرية يومذاك كان قائما من حيـــث كونهما متطلعين إلى النظام، وكلاهما يحرص على ضرورة استتباب الأمن ، شريطة أن يكفل ذلك الوضع المستتب جاري رزقهم ومكاسبهم.

على أن حال الركود كانت تشح على الناس وتحد من حظوظهم أو تعدمها فكانت الضوائق تحملهم على زعزعة الوضع ، نفاذا إلى

المغنم ، لذا كانت كثيرا ما تتحول أهون الأسباب الى مظاهر شغب وانقلاب، تعلة لتحصيل الرزق، خاصة من قبل الجند الذين دأبوا على استخلاص حاجتهم المعاشية بركوب القلاقل وألفتن، كلما وجدوا إلى ذلك دافعا..

أمـــا طبقة التغيير الصماء المتوحشة، والتي نجد دورها يستفحل كظاهرة فعالة منذ القرن الثالث على الخصوص ، فكانت تتمثل شرقا فـــي القرامطة، تلك الجموع الهجرية (مدينة هجر بالبحرين) التي خرجت على السلطان، واستقطبت اليها سكان الريف وأهل الخصاصة والمحروميـــن والمهمشـــين ومن كانوا يحنون الى التغيير الذي ظلت فـــرق الخـــوارج والعلوية والباطنية تعد به وتسعى الى تحقيقه عبر العهود..

وكانـــت تتمـــثل أيضـــا في حشود الأعراب وخصوصا القبائل الهلالـــية، تلـــك القـــوة الـــبدوية، الضـــاربة فـــي الأرض كأسراب الجراد،والتـــي قـــوت شوكتها عهود من التنقل الحر ومباشرة أعمال السلب والخروج عن السلطان.

لقد استحالت الهلالية ومعها قبائل الأكراد، وأخلاط عرقية أخرى اســـتوعبتها دار الاسلام في المشرق ولم تكفل لها حظا من المدنية، إلـــى قـــوة تضـــاهي قـــوة السلطان، بل تفوقها من حيث الشراسة والتماسك العضوي ووحدة المستوى المعيشي.

لـــذا كانت هذه الجموع الضارية ترصد جهدها لكل متمرد على السلطان لقاء الجزاء والإقطاع..

لقـــد كـــان الســـلطان يعجز أحيانا عن الإيفاء لمثل هذه الجموع المتوحشـــة بالتعويضات والجزاءات، اذ كانت عهدته تختص بالجند وهـــياكل الدولـــة ، فكـــان من ثمة خيار تلك الجموع أن تسعى في الأرض، فتغالب على رزقها ، وتنزعه بالغزو والإجتياحات .

واذا كانت القرمطية قد اتشحت بالثوب العقيدي المذهبي وجعلت مـــن الآية الكريمة: ونريد أن نمن على الذين استضعفوا ، شعارها ، فـــإن الهلالـــية ســـتظل وبامتياز، آلة اجتياحية ذات آثار تعدلت بها المعطـــيات المدنـــية، والبشـــرية في الكيان الاقليمي الاسلامي كلية، وخاصـــة في منطقة المغرب العربي، حيث كان لإطلالتها هناك من النتائج الجذرية ما سنقف عليه بعد حين.

ويمكننا استقراء الجغرافية السياسية لهذه الدول (الخلافات) التي كانت تدير عصرئذ، شؤون دار الاسلام كالآتي:

الخلافـــة العباســـية ⇦ البويهـــية ، القرامطة ، حلب ، أعراب الهلالية ، أكراد ...

الخلافة العبيدية ⇦ مصر – الشام – افريقيا.

الخلافة الاموية ⇦ الاندلس – المغرب الاقصى.

الأطراف والأقاصي : خراسان واقليم فارس ، وبخارى ، وبلاد الســـند كانـــت مســـتقلة ، وسيتعرض بعض هذه الأقاليم الى الغزو الأجنبي ، وبعضها سيواصل الفتوح..

صيقيلة⇦ استرجعها النورماد ، واخترقوا ثغور المهدية وبجاية الحمادية منذ أواخر القرن الرابع.

لقـــد كانـــت فواعل التشكيل الشعوبية تتركز خلال هذه المرحلة حـــول: الديلـــم – الفرس – العرب – البربر واخلاط أخرى تخومية وحشـــوية لاتفـــتأ الأســـباب تحـــركها داخل وخارج الحلبة السياسية والاجتماعية لدار الاسلام.

فيما كانت فواعل التشكيل العقيدية تتمحور حول المذهبين : سنة – شيعة بمختلف تفرعاتهما وقراءاتهما.

على أن هذا لا يعني احصاءنا لكل الظواهر التشكيلية التي كانت تتفاعل الواقع الاسلامي خلال هذين القرنين، ولا يعني أيضا أن هذه البنى سواء ما ذكر منها أو لم يذكر، كان يجمعها قانون التزامن،على صـــورة واضحة.. فالتواصل كان أحيانا غير محسوس تعاقبيا ولكنه مع ذلك ثابت.

كمـــا أنـــنا لا نتردد في القول بأن المنحى الإجرائي وحده يجعلنا نســـيغ هذا الطرح المتبـــنـــين، لأن الطابع العضوي الملحم لمختلف

التشـــكيلات كـــان يميز ذلك الواقع ، وان سببية الفعل ورد الفعل ، ونوعية القوى الضابطة ، ومصدرها، ومراميها ، وشروطها المكانية الزمانـــية وغيرها.. كانت تشرط ذلك الواقع وتسمه بسمات الممايزة والإخـــتلاف رغـــم انـــتماء وقائعه جميعا إلى مناخ وتربة الحضارة الاسلامية في تلك الحقبة.

ظاهرةالتحول في المكونات السياسية والإدارية لخريطة العالم الاسلامي خلال القرنين الخامس والسادس هجريين:

ما يمكن تمييزه في حركية الفعل السياسي والاجتماعي التي كانت علـــيها الخريطة الاسلامية في تلك المرحلة هو تزاوج واقعتي الثبات والدثـــور في مجريات الأحداث بصورة شبه مسترسلة ، بحيث تلازم المظهران: مظهر الخلافة كمقوم دائم وشرعي، مع ما يرتبط به من كـــيانات لاحقـــة به لبث يفرزها تراسل الأحداث من خارج النطاق الجغرافي والسياسي للخلافة أو من داخله، والتي كان يمثلها السلطان المتغلب والمتوسل إلى السدة من خلال لياذه بعتبة الخليفة .. فالبويهية تغطـــت بـــرداء الخلـــيفة ، والسلجوقية كذلك ، وهكذا كانت الدولة الزمانية وهي صاحبة الشأن في صنع الحياة والأحداث تتدثر بالدولة الروحـــية إذا صـــح التعبـــير ، والمتمثلة في الخلافة ، التي أضحت مفهومـــا ، ومجـــرد روحية معنوية يملي الواقع عليها أحوال تكيفها واستجاباتها.

وإلـــى هذا هناك مظهر الدويلات التي كانت تنشأ نشوءا عرضيا مـــن غير أن تستكمل حدا أدنى من شروط الوجود والكينونة، الأمر الذي كان يجعل جهودها في البقاء تذهب هباء، ولو بعد حين .

فلـــو تأملـــنا قليلا التشكيل السياسي الذي اختزلناه في الموضحة الســـابقة لرأينا الإقتران بين الشرطين متحققا في خلافة بني العباس بالعراق ، كما هو متحقق في الخلافة الفاطمية بمصر أيضا، والحال ذاتها قد ميزت الخلافة الأموية في الأندلس..

فالخلافـــة العباسية كانت تشهد في أواسط القرن الخامس ظهور الدولة السلجوقية، تلك القوة العسكرة والسياسية التي ألقت بها عوامل الدفـــع والجذب من قلب آسيا إلى حاضرة بني العباس بغداد (432 هـــ) بعد اندحار دولة أخرى كانت تمارس سيادتها في كنف الخلافة العباسية ببغداد هي دولة بني بويه.

وفـــي مصر نجد العبيديين ،أتباع عبيد الله المهدي المتحولين الى القاهـــرة يـــنزحون عن المغرب لتنعزل عنهم فيه، دولة بني زيري الـــبربرية ، إذ انفصـــل قـــادة هذه الدولة عن المركز ذلك الانفصال السياسي والمذهبي الذي ولّد ظاهرة كيانية ازدواجية من أصل وفرع = الزيرية والحمادية . ولن يلبث الفرع بدوره أن يأخذ ماهية أصلية مستقلة، إذ الارتباط أو التبعية التي أملها الطرفان من بعضهما بعض، آلت الى انفصال واقغي معلن ومتبلور..

لقد تحقق شرط التلازم اذ نجد الإنفصال قد حصل أولا في صورة تفكك داخلي أضحت به الدولة الزيرية دولتين ، حيث استقل القائد المحارب بلكين ، ثم حفيده حماد من بعده، عن أبناء عمهما الزيريين بتونس ، ولما كانت ارادة الانفصال قطعية ، تحتم على الحماديين أن يلغوا اعترافهم أو تبعيتهم للخلافة العبيدية الأم، وهو ما عبروا عنه بالشكل السياسي والمذهبي السافر حين حولوا بيعتهم إلى الخلافة العباسية في بغداد..

وفي هذا الحدث يتجلى الترابط الذي يجعل من الخلافة الأم مثابة سياسية تعترف بميلاد الكيانات الناشئة وتمنحها السند الشرعي.

ولا يخفى أن الكسب هنا متبادل ، فالدولة الوليدة تستمد بعض أسباب دوامها ونمائها من روحية الشرع الذي يجسده رمز الخلافة ، والخلافة بدورها تستمر في الحياة والوجود من خلال قيمة هذه الانبثاقات التي تطرق بابها تستمنحها الشرعية.

وقد آل الأمر إلى أن أضحى مجرد تقليد لا يقتضي من الدول كبير حرص على الايفاء به.

وكانت الخلافة الاموية بالأندلس في هذا العهد عرضة لانبثاقات انقلابية ترهص بمصير تفتيتي اعدامي ظاهر لكيانها السياسي والعقائدي (الأموية).. لكنها كانت مع ذلك تحتضن في بنيتها امارات أو كيانات بربرية تحالفها وتدين لها بالتبعية..

والملاحظ أن هذا التركيب المزدوج الحدية الذي افترضنا أنه كان يعم بنية تلك (الخلافات) ، حيث يتلازم قيام دولة المركزية مع وجود دويلات وكيانات أخرى تتبعها .

على إن نفوذ الخلافة (مظهر الثبات)، ونفوذ دولة السلطان (أوالوزير)(مظهر التغير) المتمركز في الحاضرة، إنما كان يعاني من تقطعات وتمزقات كان نظام الخلافة الهش، الصوري مهيأ لها. وهو ما جعل شخص الخليفة يغدو مجرد بيدق، فلا غرابة أن نجد بعض الخلفاء- آخر العهد العباسي- في أسفل السلم الاجتماعي من حيث الفقر والمنزلة.

في حين كان الشأن ، إن كان بقي لدول الانحطاط من شأن ، كان من حظ السلطان ، أو الهيئة المتنفذة.

فالخلافة العباسية أيام القادر مثلا ، وكان سلطانها في يد البويهي شرف الدولة ، كانت أقطاعا يتوزعها متغلبون مستقلون رابطتهم بالخلافة شبه مقطوعة.

فديار بكر والرقة كانت يومئذ في يد نصر الدولة بن مروان ، وكانت واسط والمعرة لجلال الدولة أخي شرف الدولة، وكانت الرقعة الوسطى ومنها الحاضرة بغداد في يد مشرف الدولة .

وذات الحال بالقياس إلى الأندلس ،إذ تحالفت صنهاجة والعلوية ضـد الخلـيفة الأموي (عام 407 هـ)، وتبلبلت أحوال الجزيرة، وتعـدد أدعياء الخلافة فيها وجمعهم زمن واحد ، حتى " صار الأمر في غاية الاخلوفة والفضيحة ، أربعة كلهم يسمى أمير المؤمنين ، في رقعة من الأرض مقدارها ثلاثون فرسخا""[5]

أما الشام فقد تصارع عليها عساكر الخلافتين: العباسية والعبيدية، وكانت عرضة لتفتيتات محلية وخارجية (افرنجية) وستعرف بعض مدنها وثغورها استقلالية غير قارة ولا دائمة..

أمـا حلـب الحمدانـية فقد كانت أهم من الحاضرة بغداد ذاتها ، بالقـياس الـى الحرية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي عرفتها نتـيجة بعض النجاحات العسكرية التي حققتها على الجبهة الرومية ، ومـا استلحق ذلك من انتعاش أدبي وفكري كان من ثماره تقريبهم لـرجال الفكـر والأدب والفنون المسلمين (المتنبي ، الفارابي ، أبو فراس)

الخلافة..الشرط الفاعل المنفعل:

تذرعت المغالبات العسكرية والسياسية الإسلامية منذ مقتل الخليفة عـثمان لتحقـيق مقاصدها ومشروعيتها بالعامل الديني ، فالأموية سـوغت وجودهـا بالنص وبالإجتهاد الذي استقرئ به مضمون ذلك

[5] - ابن الأثير .الكامل

الـنص (قـرآن -حديث).. ومثلها فعلت العباسية ، وأيضا العبيدية التي كانت تبنت مبدأ المهدوية الغيبي، لتكريس دعوتها.

لقـد رشـحت الأموية نفسها نظاما شرعيا تتجاوز به الأمة واقع الفتـنة وتحمي به الكيان من مخاطر التفاني التي داهمتها في مسلسل الصـراع علـى الخلافة الذي كان قطباه المتنازلان علي ومعاوية- رضـي الله عنهما- ومن ورائهما كانت تتشكل عصبيات ونزعات سوف لا تلبث أن تتمخض عنها الأحداث ذلك الصراع..

أمـا العباسـية فقـد انطلقت ملوحة بتباشير العودة إلى الحق والإنتصـاف لأهل الحق :آل الرسول (ص)،ومن خلالهم كل مظلوم نال منه السلطان الأموي الدينوي في ماله أوفي دينه..

وتوسلت المهدوية من جهتها بمبدإ الأحقية في الملك الذي اقتضاه الله لآل البيت، مضافا الى ذلك المبدإ تسخير الإيمان الذي تقوم عليه فكـرة المهدويـة وهـو ظهور صاحب الزمن ومرسي دعامة العدل الإلهي..

وكانـت الجماهير المسلمة ترى في مرفق الخلافة رابطة روحية ورمـزية تصـلهم بالنبوة. من هنا أنزلوا مؤسـسة الخلافة والخليفة منزلة التقديس والتعظيم ، وجعلوا الامتثال لسلطانه من الشريعة.

لقـــد كانت الخلافة- بما تتحلى به رمزيتها في الشعور الجمعي مـــن قيمة قداسية تصلها بالماضي الديني- هي الإطار الأسمى الذي يجســـد المرجعـــية الروحـــية والمدنية التي تهفو إليها أفئدة المسلمين وتستلهم أسباب الرضى بالواقع والأمل في رحمة الغيب..

مـــن هـــنا كانت مكانتها في الضمير الاسلامي جليلة، وهو ما أعطاها ذلك السمو الذي كان أثره في النفوس يكفل للناس ضربا من الطمأنينة الروحية والعزاء الذي يتيح للحياة أن تمضي مهما كانت طبيعة ترديياتها.

هكذا إذن تأصلت الأواصر الروحية والأدبية بين المسلمين وبين مفهوم الخلافة..

وطبيعـــي، والحال هاته أن تسعى الخلافة من خلال أطرها إلى أن تلتزم بأداء هذا الدور التكفلي ولو على شكل رمزي..

إن تعـــدد ظاهرة الاستخلافات (أو الخلافة) في تاريخ المسلمين يعكس، في جملة ما يعكس، هذا التجدد النفسي والنزوعي الذي يلازم المســـلمين كلمـــا تردت أوضاعهم وتشظت آمالهم في تحقيق الكرامة والعدل والسكينة.

ولمـــا كانـــت فكـــرة الخلافة تعد من المبادئ المرتبطة بالعقيدة والشرع، فقد رأينا المنطلقات أو الدعوات التي سوغت لمختلف نماذج

الخلافـــة الاســـلامية الأربعة: الراشدية، الأموية، العباسية،والعبيدية تنحصر جميعا في إطار الدين، إذ العقيدة هي التي ظلت تبرر ظهور تلـــك (الخلافـــات) إلـــى الوجـــود ضـــمن ظروف تاريخية محددة واعـــتراكات مرحلية خاصة، الأمر الذي أوصد الباب في وجه مزيد من الإدعاءات والمزاعم على كثرتها، وسكن غلواء بعض الأفراد في أكثر من عصر ومصر ادعوا النبوة تحقيقا للمطمح السياسي .

واذا كـــان الإطـــار المكاني الإقليمي قد ساهم في جعل العباسية تنفي الأموية وتقصيها من موقع المركزية إلى قصي من الأرض هو الأندلـــس، فـــان إنبـــثاق العبيدية بين فضاء تترامى عبره الخلافتان العباســـية والأندلســـية ليدل على القابلية الروحية والزمنية التي تميز الأمة ، والتي جعلتها لا تتردد في الاستجابة ودعم الجهات المتوسلة إلى أغراضها بادعاءات إمامية.

فالأمـــة بذلـــك إنما كانت تعرب في كل مرة عن عاطفة الدين المتهيـــئة فـــي أعماقهـــا على الدوام، وكانت تتطلع إلى تحقيق حلم الانبعاث الكامن في الصدور ، ذلك الحلم الذي غدا يتجاوب حتى مع التلويحات المضللة .

وإنـــه لأمـــر طبيعـــي أن يكون هذا التعدد في المراكز عامل إضـــعاف لقـــوى تلك (الخلافات)لذا رأينا العباسية تعرف الإنحسار والضمور بعد مضي قرن فقط أو نحوه على قيامها.

لقد أخذت الإنشطارات الذاتية تضر بقوتها ووحدتها ، وأضحت الأطراف التي استحالت دولا، تمسك عنها المدود والأموال ، ولما فشلت المركزية العباسية في تحقيق التماسك ورأب التصدعات وضعت حرمتها ورمزيتها في المزاد ، وبات التغالب بين القوى الفارسية والتركية خاصة يستمد قوته ووجاهته من الكفالة الروحية التي تضفيها عليه علاقة المتغلب بالخليفة من شرعية .

لقد باتت شارة الشرعية بيد الخليفة ، وكان طقس إلباس إلباس البردة وتقليد الراية، هو الصورة التي يتم بها اعتماد السلطان الشرعي . من هنا بات قصر الخليفة مقصد كل متغلب من أجل أن يظفر بشارة التولية على يديه وفي حضرته. وما كان للخليفة أن يمنع مباركته عن أي متغلب ، ذلأن الخليفة كان قد جرد من أي سلاح مادي أو عصبية قاهرة.

القرن الخامس..قرن إتلاف مادي وأدبي للحضارة الاسلامية:

لا نماري في القول بأن القرن الخامس الهجري ، قد جسد دورة النضج الحضاري الذي تحقق للأمة الاسلامية في مسيرتها العالمية منذ البعثة المحمدية.

فلقد أثمرت جهود الأمة وأعطت طيب النتائج على مختلف الأصعدة ، وتبذخت أوساط اجتماعية عريضة ، وتهيأت حركة عالمية غدت فيها بلاد الإسلام مركز الإستقطاب ، وأضحت المبتدعات

تسوق إليها من كل صوب،وبات العقل الإسلامي يمنح الإعتمادات الفكرية ، بعد أن أحرز منزلة علمية مركزية أهلته لأن يكون مرجع الاعتماد في مجال المعرفية الإنسانية ..

وعلى الصعيد المدني والإجتماعي رفلت الأوساط الحضرية في الرخاء، وترقى الذوق العام،وتنافست الأقاليم والممالك في المبتكرات،وشملت رعاية الإنسان الطبيعة الجامدة نفسها، واهتم بالإيكولوجية، وكان حظ أهل الأندلس في هذا الشأن بارزا ، لقد تأنق الذوق عندهم في الحقل الإبتكاري والاقتنائي ،وأغنوا ما كان يصلهم من الشرق ومن أوروبا بتحسينات تعكس طابع قريحتهم، مضيفين إليه ما كان التنافس يتيحه لهم من جمالية وتقنية .

وكانت العبيدية المرحلة التي أخذت فيها مصر بعدها العالمي المتكامل ، من حيث تأنقها في تشكيل واجهة حضارية قائمة على نزعة التميز والظهور.

لقد استوعب العبيديون منجزات الطولونية والأخشيدية وأصلوها بما حملوا اليها من تقنيات بربرية وذوق أندلسي طبع النموذج الحضاري المصري بروحه الحية، الأمر الذي أعطاها ذلك البعد المخصوص الذي لازالت شواهده المعمارية والفنية تعكسه الى اليوم..

أمـــا الحاضـــرة بغـــداد ، فبالرغم من تبدد كثير من الانجازات المدنـــية والمرفقية بها في ذلك العصر، إلا أننا نعد ما توفر لها في مضمار المدنية والفنون نصيبا شامخا،وعلى غاية من الكمال.

لقـــد تـــأتى لها أن تبلغ ما بلغته في ما أصلته من مدنية وضعها السياســـي والجغرافـــي والروحي ، باعتبارها المركزية الرمزية الأم للمســـلمين ، فهي حاضرة المسلمين الأولى ومقر السلطان السني فضلا عن تميز تاريخها ومكانتها المحورية الاستقطابية العالمية.

وهـــو مـــا جعلها محطا لأصحاب القرائح والعبقريات من شتى ارجـــاء العالم الاسلامي ومن خارجه ، فحيويتها السياسية التي ظلت ثابـــتة كانت تجعل منها موطنا منشودا يهفو إليه كل متغلب عسكري وكل طامح لظهور سياسي أو اقتصادي أو أدبي أو علمي أو ديني.

وسنرى كيف أن الفلسفات والمذهبيات الثقافية كانت تجد منطلقها نحو العالمية في العراق..

فالإكـــتمال الحضـــاري والإســـتواء المرفقي قد عرف في القرن الخامس سقفه الذي لم يعد يتوقع له إلا أن يعيش العد العكسي..

حقا لقد تدهورت أحوال بغداد قبل هذا القرن وراحت الإنتكاسات السياســـية والعســـكرية تضـــربها وتوقـــف فـــيها ديناميـــة النمو والإســـتبحار،لكن تلـــك الإنتكاسات كانت لا تعطل الحياة ، إذ آلية

الـــنهوض وتجاوز العثار كانت قد استحكمت في الإنسان البغدادي ، وظلت تحدوه الى أن يبدي هذا الإصرار الفذ على البقاء . وأن بيانية التطور الحضاري لتسجل في عصر المأمون ، قمة صعودها ، من حيـــث رسوخ وسائل الانجاز والإبتكار واتساع أرضية التنفيذ العلمي والتمـــثل المعرفـــي، لكن تلك البيانية وإن لم يقدر لها أن تمضي في صـــعود مطـــرد وبـــذات الوتيرة التي كانت لها على عهدي الرشيد والمأمون ، إلا أنها لم تنتكس إلى وراء ، ولم تتراجع نحو الخمول ، وإن عـــراها التذبذب في مراحل عدة ، إذ كان لها في مدود التجدد والتجديد التي كانت تصل إليها من الأطراف، مادة ثبات واندفاع حفظ لهـــا المضـــي وضمن لها ذلك الحد الذي غدت به حتى في مراحل التردي والتقهقر، تواصل العطاء ولو بمحدودية.

لقـــد كانـــت الســـقطات تعفر الوجه ، وتشوه الإهاب، ولكنها لم تســـتطع أن تقضـــي على الروح التي صنعت نموذجها الحضاري، وأصرت على البقاء رغم فقدانها كثيرا من شروط القوة.

علـــى أنـــنا لا نقول أن سن النضج المدني هو سن الإستقرار والثـــبات دائمـــا ، بل لابد من التأكيد أن النضج هو مرحلة التناقص التي تبدأ غير محسوسة تقريبا ثم لا تلبث أعراضها أن تعرو الكيان متى كان الزاد نافدا ومفتقدا لامكانية تجدده .

وبالقـــياس إلـــى الحضـــارة الأسلامية يبدو لنا أن عصر الفتوة والعنفوان قد تمثل في القرن الثالث ، أما ماتلاه من القرون فإن ثمرة

العطـاء الحضاري الناجز والمحقق وحدها هي التي لبثت تمد الجسم الإسلامي وتجعله يغدو متماسكا.

وإذا وقفـنا مـثلا علـى مرفق السلطة العليا للدولة ، والتى كان يجسدها شخص الخليفة بما يرمز له من قيم، فإننا سنجده قد تألق في عصـر الرشـيد ، حيـث تـأتى للخلـيفة يومئذ من أسباب التمكن والمرجوعـية مـا سوغ له أن يقول ذات يوم، وقد مرت به سحابة حسب الرواية : طوفي ما تطوفين فإن ريعك لامحالة سينتهي إلي.

إن هـذا التمكن المادي والمعنوي الذي كان يستشعره الخليفة في قوتـه ومركـزه سـوف يتضاءل بتدخل فواعل التأثير والتحكم التي اخترقـت بها قوى الصراع والتفتت حرمة الخلافة، إذ أصبح النفوذ يمـارس علـى شـخص الخليفة بصورة إذلالية إحيانا، وغدت الآلة العسكرية بطابعها العرقي الشعوبي تختزل وظيفة الخليفة في مراسيم شـكلية متناقصة مع الزمن ، حتى انتهت بأن جعلته ينصاع مقهورا لإرادتها.

لقد بات العسكر ينصبون الخلفاء عنوة ويعقدون لهم البيعة ،لا يكلفهم ذلك كبير عنت . فحين توفي المعتصم مثلا نجد الجند التركي يجتمع ويتدبر السبيل الذي يستبقي به الخلافة في نسل المعتصم " إذ كرهوا أن يتولى الخلافة أحد من ولد المتوكل لئلا يغتالهم، وأجمعوا

علـى أحمد بن محمد بن المعتصم، وقالوا: لاتخرج الخلافة من ولد مولانا المعتصم"[6].

وقد فعلوا ذات الفعل حين توليتهم المعتصم نفسه..

وقد نجدهم يقحمون للمنصب من لا يتوفر فيه حتى شرط التقديم، كما صنعوا حين نصبوا بعض الخلفاء .

ولقـد تصـدرت المؤسسـة العسكرية الحياة السياسية ، وأدارت الحـياة مـن خلال هذا النفوذ الذي ألغت به دور الخليفة.. وحملتهم المصـلحة المادية الفيأوية وحب التسلط والتنفذ في الشؤون العامة ، على أن لا يترددوا في إزهاق أرواح بعض الخلفاء كلما رأوا في ذلك سبيلا لضمان سلطانهم، كما حدث للمعتز مثلا حين صفي على أيدي جنده ، إذ أعدم بحال من الإذلال رهيبة ، استخلاصا للمال منه

..ومن قبله نكلت العسكرية بالأمين وبالمتوكل ، وغيرهم كثير..

لقـد كانت عادة سمل العينين ، وهي من أعراف العقاب الوحشي الروماني ، نكالا عسكريا لحق بعدة خلفاء..

ولعـل مفهوم لفظ الإنحطاط، يجد دلالته في القيمة المتسفلة التي بات شخص الخليفة يمثلها حيال طغيان العسكر وهمجيتهم .

---

[6]- ابن الأثير. الكامل.

وإنها لحال معبرة تلك التي عرفتها منزلة الخلافة ، حين أضحى الخليفة يخرج متلقيا قائدا متغلبا، تسوقه الى حاضرة الدولة عصبية عسكرية لن يكون للخليفة عليها يد ، وإنما هي دوامة التقلبات المعقدة تعلو بقاهر ومن ورائه عسكره ، وتسفل بقاهر آخر مع معسكره، الأمر الذي انعكس على مجرى التاريخ ذاته ، إذ غدت لونية العهود لونية عسكرية، المنزع العصبي يسندها، وهو ما أهدر مقام الخليفة ، وحصر دوره في بعد رمزي كان الأساس الإنقلابي التغالبي نفسه يقتضي وجوده.

إذ لا سكينة تؤمل لنظام ركب الى غايته السياسية مركب العنف والاعتساف ، لم يعد يتذرع الى بسط سيادته بالوازع الشرعي والمرجعي الذي يستمده شكليا من الخليفة.

لقد كانت فواعل الحركة التاريخية آنذاك مركبة ، قد أخذ العامل العسكري فيها صبغة المرجوعية ، وكانت المأساة أن أضحت العسكرية مطلقة اليدين والرجلين لا تضبطها الأخلاقيات ولا الأعراف. لذا طغى على التفاصيل التاريخية وجه الدم والافتراس والضراوة الإنسانية حين تؤججها نار التسفل والسقوط .

لقد سملت عينا الخليفة المتقي..وعاش بعض من الخلفاء الفاقة الحق.وبيعت أمتعتهم ، واحتلت دورهم .

لذا سننعطف بالحديث قليلا عن أحوال ذلك الاعصر –القرن الخامس– لنعاين عن كثب واقع الخلافة كما عرفته الحواضر الثلاثة: بغداد ، والقاهرة ، وقرطبة..

قال إبن الأثير تحت عنوان : ذكر حال الخليفة والسلطنة ببغداد ، مايلي:

"في هذه السنة (أي 426)انحل أمر الخلافة والسلطنة ببغداد حتى أن بعض الجند خرجوا الى قرية يحيى فلقيهم أكراد فأخذوا دوابهم ، فعادوا الى قراح الخليفة القائم بأمر الله، فنهبوا شيئا من ثمرته..فسمع الخليفة الحال فعظم عليه ولم يقدر جلال الدولة على أخذ أولئك الأكراد لعجزه ووهنه ، واجتهد في تسليم الجند الى نائب الخليفة فلم يمكنه ذلك فتقدم الخليفة الى القضاة بترك القضاء والامتناع عنه ، وإلى الشهود بترك الشهادة ، والى الفقهاء بترك الفتوى ، فلما رأى جلال الدولة ذلك سأل أولئك الأجناد ليجيبوه إلى أن يحملهم إلى ديوان الخلافة، ففعلوا، فلما وصلوا إلى دار الخلافة اطلقوا، وعظم أمر العيارين، وصاروا يأخذون الأموال ليلا ونهارا ولا مانع لهم ، لأن الجند يحمونهم على السلطان ونوابه والسلطان عاجز عن قهرهم، وانتشرت العرب في البلاد فنهبوا النواحي وقطعوا الطريق، وبلغوا الى أطراف بغداد حتى وصلوا إلى جامع المنصور، وأخذوا ثياب النساء في المقابر"[7]

لقد سقنا هذا النص رغم طوله، وفي نيتنا اختزال أهم مؤشرات التحلل الذي فشا في أوضاع الخلافة، باعتبار الخلافة مجتمعا ومرافق

- [7]ابن الأثير . الكامل .ج/8ص.8

وسلطانا، محاولين من خلال ذلك تصور فواعل التدمير المشتركة بين الخلافات القائمة في ذلك الوقت، واقفين عند النتائج المترتبة عنها في مجال الثقافة والفكر من جهة، والتأثيرات التي كانت لذلك الوضع في مضمار الحركة التاريخية والحضارية للأمة من جهة أخرى..

ان حديث المؤرخ ينصب هنا على الواقع البغدادي العباسي في حدود حضارية مكانية زمانية معينة، يمكن التأشير لها كالتالي:

المجال الحضاري ⇦ الخلافة العباسية.

الفضاء الإقليمي ⇦ بغداد.

لحد الزماني ⇦ الربع الأول من القرن الخامس.

إن العناصر الفاعلة في البنية كما يبينها هذا المسرد اثنتان: الخلافة والسلطنة، وهو ما يؤكد إقرارنا السابق بازدواجية المرفق السلطوي ، وبثنائيته المكونة من الدائم الصوري ⇦ الخلافة ، والمتغير الضروري ⇦ السلطنة .

لقد استخدم المؤرخ في وصف حال الخلافة فعل ⇦ انحل ، وإن من توليدات الانحلال : التفكك ، التمزق، التميع ، الزوال..إلخ.

فالتوظيف اللغوي صادر هنا عن وعي انتقائي، تسليمي ، يأسي، أدرك المؤرخ من خلاله حقيقة المآل الذي آلت اليه الخلافة آنذاك..

فالمؤرخ من خلال الصورة الخبرية التي استجمعها في هذا السياق قد عبر عن مشاعر استفضع بها المصير المأساوي والوضع الغوغائي الذي كان يمضي بالخلافة نحو الفناء، اذ أن التردي بلغ حد اللامعقولية..

لقد ساق المؤرخ- لكي يسجل هذا التحول المؤذي الذي عرفه مرفق الخلافة وشخص الخليفة ذاته- حادثة على بساطتها، إلا أنها ترجمت فعلا دلائل الانهيار الذي شمل بنية الدولة واستهدفت بالدرجة الأولى مرافقها الرمزية وعلى رأسها شخص الخليفة. وأصابتها في العمق حين أضحت عسكريتها تتصرف بروح التمرد والعصيان والنقمة ، ولم تعد للخليفة ولا للمقدسات عندها أية حرمة..

إن هذه الحادثة المتمثلة في مسلك غير إنضباطي لمجموعة من العسكر لم تكن شاذة ، بل كانت القاعدة التي باتت تحكم علاقة العسكر بالمشهد المدني عموما من حولهم .

فالإرتداد بالنقمة العسكرية قد استهدف الخليفة رمز السيادة الشرعية، وفي ذلك دليل على ما بات عليه هذا الشأن الروحي من هوان في نظر العسكر أيامئذ..

إن تدخل السلطة الزمنية قد عجز هو أيضا عن تحقيق الانضباط.وكان يومئذ جلال الدولة (البويهي) هو السلطان الزمني ببغداد..

كما أن استخدام الخليفة لنفوذه الأدبي ، من خلال كفه الشهود والقضاة والفقهاء، أي الجهاز الإداري للمؤسسة الشرعية ، عن العمل لم يحقق نتيجة تعيد الأمر إلى نصابه ، في تلك الحادثة على الأقل .

إذ أن رد فعل الخليفة في هذه الحادثة كان لا يتجانس من حيث الردع مع الفعل.

من جهة أخرى يفيد السياق أن اجراء تعطيل نشاط تلك المؤسسات الشرعية الذي لجأ إلى اتخاذه الخليفة كان اجراء غير مجدي ، والسبب هو عدم ترابط التأثير بين هياكل الدولة ، لغياب المرجعية المركزية اللاحمة بين تلك الهياكل ، الأمر الذي أعطى لوضع التفكك تراتبا كانت الصدارة المطلقة فيه لمن يملك السلاح ، أي للجندي .

فحتى السلطان الزمني نفسه ، والذي كان يمثله قائد العسكر ، كان يعيش العجز، بعدم تحكمه في القوة النظامية(؟) العسكرفحاله من هذه الناحية يتشاكل مع حال الخليفة على نحو ما..

لكن الأدهى أن يكون العجز هاهنا عاما يشمل أيضا قطاع العسكر كقوة ضبط وتنفيذ وحسم، فقد أخبرنا النص أنهم عجزوا في تلك الحادثة عن قهر مجموعة الأكراد ، أي اللصوص..

لقد جعلنا المؤرخ من خلال سرد هذه الحادثة نعيش ولو بشكل كاريكاتوري ، حادثة تغالب ، كانت شاهدا من شواهد الفوضى وانحلال المجتمع عامة من النظام ، فالمشهد الصراعي أضحى يجمع إلى العسكرية وقادة العسكر ، والقيمين على الشؤون الشرعية : قضاة فقهاء عدول ، اللصوص ، إذ صارت اللصوصية وظيفة لها قطاعها ونقابتها ونظامها وريعها ، وسنراها تنهض بدور أسهم في تعميق درجة التردي ، وذلك كله ناتج عن انعدام المرجعية القوية ، لأن أداة الضبط والقهر : أي العسكرية كانت قد تردت هي أيضا في الوحل.

لقد خرج متغلبا في تلك الواقعة طائفة اللصوص ،أو الخارجين عن القانون .أي المافيا ، وما أشبه اليوم بالبارحة يا زمان. لذا رأينا أنه حتى بعدما أفلح السلطان في ترضية الخليفة، بحمل العسكر المذنبين في حقه إلى المثول أمامه ، فان الأمن لم يستتب ، والنظام لم ينجبر ، ولكن الطرف المتغلب: العيارون – ومعهم فلول العرب البدو، قد انتهوا إلى بغداد، ووصلوا إلى جامع المنصور .

ولا شك أن وصولهم إلى تلك النقطة : جامع المنصور وتسجيل المؤرخ لذلك إنما لكي يبرز الوضع التدنيسي الشامل الذي طم وعم . فدلالة المكان التي يؤشر لها لفظ المسجد تعكس هنا فداحة مزدوجة، اذ شمل فعل التعدي المجال الدنيوي (بغداد) ، والديني (الجامع) معا..

بل لقد تجاوز وضع الدناسة ذاك الحد ، لينتهي الى حال من الوحشية المقيتة ، إذ أخذوا ثياب النساء في المقابر كما يخبرنا المؤرخ..

انها حادثة تاريخية تكشف مستوى الاستخذاء والهوان الذي ترديت فيه الدولة أو الخلافة في بغداد ، وإنها لحال تبرز حقا المصير الذي سوف تعرفه البويهية ذاتها ، باعتبارها صاحبة السلطان الزمني في ذلك العصر، اذ سوف لن يمضي على دولتهم سنوات معدودات من تاريخ وقوع هذه الحادثة ، حتى تسقط لتحل محلها السلجوقية ..

و في وسعنا أن نحصي مزيدا من الأحوال التي عاشها كثير من الخلفاء في هذا القرن، استحضارا لصورة الإنسحاق الذي كانت عليه دولة الخلافة ، لا في بغداد وحدها، ولكن في مصر والأندلس أيضا..

فإذا ما واصلنا استعراض أوضاع خلفاء بني العباس ، فإننا سنجد أمر خلعهم وتوليتهم قد خرج تماما عن إطاره العائلي العرفي والمدني ، ليضحى من شأن العسكر وحدهم كما قررنا سلفا..

لقد رأينا الخليفة المطيع مثلا، وكان قد أصابه فالج وظل" يستر ذلك " يضطر عام (363) الى أن يخلع نفسه بعد أن انكشف أمره لوزيره سبكتكين ، ويسلم الخلافة الى ولده الطائع لله..

وإذا كان الحدث يعد إيجابيا ،من حيث هو إجراء نظامي وشرعي تخرج به السلطة من يد إلى يد ، بحكم الضرورة الحيوية (الصحة) الا أن سلبيته تكمن في أن الجهة المقررة له كان (الوزير العسكري) وليس الوجاهة السياسية والشرعية التي تدال بها سلطة الخلافة والممثلة في الأسرة الحاكمة والمجتمع المدني كما نسميهم بلغتنا السياسية المعاصرة..

أما أن يستبد السلطان العسكري بأخذ القرار وتنفيذه من غير الرجوع إلى المشورة المدنية أو حتى العائلية، أو من غير مراجعة من كانوا يعرفون في الإصطلاح القديم بأهل الحل والعقد ، والذي يمثله جماعة الفقهاء ورجال القضاء وأعيان البلد والطبقة المتنورة وبقية المرجعيات التي تقدمها عدالتها الدينية وسمعتها الأخلاقية.. فذلك ما كان يعزز من النزعة الإنقلابية ، ويقوي من استبداد العسكر، وينيط ما يمكن أن يسمى بالسيادة العليا للأمة بإرادتهم ، وهو ما أضعف من مركز الخليفة ، وانتقص من اعتباره ، وهوى بسلطته الى حد رمزي سلبي الأثر والفاعلية..

لقد كشفت علاقة الطائع لله (ابن المطيع) بالمؤسسة العسكرية، في بعض الأطوار هذا الهوان الذي ألحقه العسكر بشخص الخليفة ، فلقد قلت الأموال عند وزيره بهاء الدولة، فسعى الوزير لاستخلاص المال من بعض رجال دولته قهرا ، لكنه لم يفلح، فالتفت الى الخليفة الطائع وهيأ له مقلبا، " إذ أرسل إليه وسأله الإذن في الحضور إليه ليجدد له العهد ..فأذن له الطائع، فلما جلس بحضرته دخل بعض

الديلم كأنه يريد أن يقبل يد الخليفة، فجذبه فانزله عن سريره والخليفة يقـول إنا لله وإنا اليه راجعون ، وهو يستغيث ولا يلتفت إليه ، وأخذ مـا فـي دار الخلـيفة من الذخائر ومشوا به في الحال ، ونهبالناس بعضهم بعضا "[8]

وإنه لغير مجد التعقـيب على ما يصوره هذا الموقف من خزي لحق الخليفة على يد رجال السلطان بشكل علني وسافل.

لقـد تجـاوزت المأساة هنا حال الضراوة التي كان الإنقلابيون يصـفون بهـا أعداءهم،إلـى وضـع أخذت فيه العلاقة طابع الغدر والمكـيدة ، وكل ذلك يترجم ذهنية العسكريين في تلك المرحلة ، إذ أن المـناورة كما حيكت لا تصور إلا الطابع السوقي والخساسة التي باتـت تسـم الجند وتجردهم مما عرفوا به من نجدة وشهامة ونبل، فهمـة المنقضـين على الخليفة انحطت إلى درجة أنها توسلت إلى قصدها الغادر بالإحتيال الجبان.

لقـد تلاقـى أخـلاق الجند في هذا الحادث بأخلاقيات العيارين واللصـوص الذيـن ظهر أمرهم في تلك المرحلة وشكل مركزا من مراكز القوى.

فأخلاق تلك المرحلة قد جنحت إلى ذلك المنحى اللصوصي. مما يـدل على أنه حتى المثل والمعايير تتبع منطق الغلبة ، فالناس على

[8] ن.م.

ديـن ملوكهم ، وإذا كان الملك لصا أو عيارا أو مافيا ، فإن أخلاق الأمة ومحامدها لن تخرج حتما عن اطار أخلاق اللصوصية .

الشريف الرضي يتأسى على والضع العام للنظام والسلطان.

لقد بات الهم المعاشي ، والحاجي ، أو ما نسميه الوازع المادي الإرتزاقـي ، أسـاس الفعل المحرك للجند، وأضحت الدولة بيد جند غوغائـي لـم يعـد الفـيء واحده بكاف لإعالتهم، لازدياد تكاليفهم وتمـاديهم فـي الاستهلاك ، لذا أضحوا يعولون على التظاهر وعلى المطالبات الدورية القائمة على الإنقلاب والإغتيال..

ويذكـر المؤرخ عند إيراده هذا الخبر، أن الشريف الرضي كان مـن جملـة المنهوبين في تلك الواقعة ، الأمر الذي حمله على نظم أبيات يتأسى فيها لحال الخليفة، قال فيها:

من بعد ما كان رب الملك مبتسما الـي أدنـوه فـي الـنجوى ويدنيـني
أمسيت أرحم من قد كنت أغبطه لقـد تقـارب بيـن العـز والهـون
ومنظر كان بالسراء يضحـكني يـا قـرب ما عاد بالضراء يبكيني
هيهات أغتر بالسلطان ثانيـة قـد ضـل ولاج أبـواب السلاطيـن..

الخليفة يبيع متاعه لدعم مجهود الجهاد والوزير يحول المال إلى متعته.

لقد بلغ من ابتزاز العسكر للخليفة حدا غدت به حتى قيم مقدسة مثل الجهاد، موضوع استهتار واستثمار مادي خسيس من ذلك ما حدث عام 361هـ،حين استنفر أهل الشام الناس في بغداد للجهاد ، فكان أن تجمعت العامة ، فأظهروا العصبية المذهبية الزائدة، وتحزب الناس، وظهر العيارون، فنهبت الأموال، وقتل الرجال وأحرقت الدور..ثم ان بختيار(السلطان) أنفذ إلى المطيع يطلب منه مالا يخرجه في الغزاة ، فقال المطيع:

إن الغزاة والنفقة عليها وغيرها من مصالح المسلمين تلزمني إذا كانت الدنيا في يدي وتجبى إلي الأموال، وأما اذا كانت حالي هذه فلا يلزمني شيء من ذلك ، وانما يلزم من البلاد في يده ، وليس لي إلا الخطبة، فإن شئتم أعتزل فعلت ، وترددت الرسائل بينهما حتى بلغوا الى التهديد ، فبذل المطيع أربعمائة الف درهم، فاحتاج الى بيع ثيابه وانقاص داره وغير ذلك، وشاع بين الناس من العراقيين وحجاج خراسان وغيرهم أن الخليفة قد صودر، فلما قبض بختيار المال صرفه في مصالحه وبطل حديث الغزاة[9] ".

[9] - م.ن.

فالواقعة تصور العلاقة التى كان عليها الخليفة مع سلطان الدولة، علاقة تخضيع ، كما تصور صلات الناس في مجتمع الخلافة العباسية، تلك الصلات المذهبية التعصبية المهيأة للإنفجار حتى في ظرف جهادي حماسي كهذا .

كما تكشف عن ضعف عقيدة السلطان أو موتها على الأصح، فقد كان همه من تحصيل المال تغطيه حاجاته، وليس النفقة على المقصد الجهادي الذي حرك الناس

تاريخية المسلمين أوشكت على الانقطاع لولا ظهور جارية حامل.

واذا كان الإفصاح الرمزي يشخص الحقيقة أحيانا بالإيعاز بدراميتها، فإن افصاح خبر كذلك الذي أورده المؤرخون عن وشوك انقطاع نسل الخليفة وزوال الخلافة العباسية في عهد القائم، لو لم يهتد الناس إلى جارية كانت حاملا من ابن الخليفة المتوفي، إن هذا الخبر ليعبر عن الحال التي أوشكت فيها تاريخية المسلمين نفسها على الانقطاع.

إن بيعة المقتدي بما اكتنفها من جو مريب ، ومن مخاوف الانقطاع، وما يخشى أن سيترتب عن وضع العقم (المادي والمعنوي) الذي كان هذا الخليفة عليه ،كانت تعطي لنبإ وجود الجارية الحامل من ولد الخليفة كل التبرير لجعله مناسبة يعرب فيها الناس عن سعادتهم ببقاء الخلافة واستمرار حبلها في الورثة من

الأسرة العباسية ، بكل ما لذلك الاستمرار من ايعازات البقاء والصمود والمقاومة.

يقول ابن الأثير:

" لم يكن للقائم ذكر سواه (أي المقتدي).. فان الذخيرة ابا العباس محمد بن القائم توفي أيام أبيه، ولم يكن له غيره، فأيقن الناس بانقراض نسله وانتقال الخلافة، من البيت القادري الى غيره، ولم يشكوا في إختلال الأحوال بعد القائم، لأن من عدا البيت القادري كانوا يخالطون العامة في البلد، ويجرون مجرى السوقة ، فلو اضطر الناس الى خلافة أحدهم لم يكن له ذلك القبول ولا تلك الهيبة ، فقدر الله تعالى أن الذخيرة أبا العباس كان له جارية اسمها ارجوان، وكان يلم بها ، فلما توفى ورأت ما نال القائم من المصيبة ، واستعظامه من انقراض عقبه، ذكرت أنها حامل ، فتعلقت النفوس بذلك ، فولدت بعد موت سيدها بستة أشهر، المقتدي، فأشتد فرح القائم وعظم سروره، وبالغ في الإشفاق عليه، والمحبة له..".

واذا كان المغزى من سرد هذا النص هو التدليل على حيوية مرفق الخلافة وما كان له من شأن رغم كل الدواهي التي دهته ، وما كان يتهدد بقاءها واستمرارها من مخاطر، فإن السياق يكشف لنا أيضا عن تلك العلاقة العاطفية التي ظلت تشد الناس إلى موضوع رمزياتهم، رغم وضع التردي والإنحلال الذي اكتنف حياتهم، وهدر كثيرا من قيمها وتوازناتها..

لقد عز في هذا العهد إيجاد ولي العهد المستخلف الجدير بالنهوض بكفالة الأمة روحيا، إذ العقم البيولوجي أوشك أن يجعل نهاية لنظام الخلافة في استرساله السلالي النبيل .

وإن استشراء التردي يومئذ لتؤكده تلك الحال التي كانت تعيشها العترة العباسية الحاكمة ذاتها، بوصفها الأرومة التي جسدت بتاريخها السياسي والاجتماعي الموثق الروحي ومرموزيته : الخلافة.

لقد فقدت فروع سلالية كثيرة من تلك الأسرة الحاكمة خصيصة النبل الأجتماعي التي نجدها تميز عادة أهل الشأن والوجاهة من الناس، وهو ما يعكس خمول البيت العباسي نفسه ، وهو حال يندرج ضمن منطق السيرورة التي تحكم الأشياء والوقائع[10] .

لقد قامت ميزة التراتب يومئذ على سلم مقلوب ،تدنت فيه منزلة الخليفة وآله ، وارتفعت على حسابها منزلة السلطان المتغلب بوصفه قائدا للعسكر..لكن حتى هذا الإرتفاع الذي زعمناه لمنزلة السلطان أو

[10] ولا غرابة أن نرى نحن منذ أيام مثلا بعض قصور الأمير عبد القادر الموجودة في دمشق يشملها القدم والتهدم . ولم يمض على عزها أكثر من قرن . فالرثاثة تلحق السلالات كما تلحق الموروثات المادية سواء بسواء ، اللهم إلا إذا وجدت حظها ومن يتعهدها ، لسبب من الأسباب.

الوزيــر ، إنما كان هشا، عرضة للإختراقات والتجاوزات كما رأينا منذ قليل..

وإذا كـــان الهـــوان قد لحق الخلافة كما أسلفنا منذ عهد المتوكل تقريـــبا ، فإن هناك بعضا من الخلفاء قد عكس مرورهم على كرسي الخلافـــة إرادة كبيرة في النهوض بالأمر وإعادة الفاعلية إلى وظيفة الخليفة ، نذكر من هؤلاء المعتضد مثلا..

وفي ما يخص القرن الخامس ، فقد وجدنا شخصية القادر ، على مـــا ســـاد عهده من ترديات، تحوز إمتداح المؤرخين، فقد أشار إبن الاثير الى المساعي التي بذلها هذا الخليفة من أجل أن يعود للخلافة دورها في الحياة السياسية والإجتماعية العباسية رغم ما كان يتلاطم تلك الحياة من صراعات الطوائف والأقوام..وخاصة على يد كل من العســكرية الديلمــية والتركــية اللتين كانتا تتجاذبان الزمام بمنطق المغالبة والفتك..

وممـــا يعكـــس تدهـــور الخلافـــة العباسية ، حدوث الإجتياحات العسكرية المذهبية التي كانت تنتهي أحيانا الى الحاضرة بغداد ذاتها، وتتوســل بالقوة الى مقاصدها الإنقلابية، مثل ما حدث في زمن القائم إذ نزل القائد البساسيري الى بغداد ، واحتل منابرها ، وخطب يدعو الى العلوى (العبيدي) فما كان من الخليفة إلا أن خرج مع زمرة قليلة للتصـــدي لهـــذا الإختراق، ثم ما لبث أن غادر العاصمة مغلوبا على أمـــره، لـــيعود به القائد طغرلبك الى حاضرته ، ولتبدأ بذلك صفحة

جديـــدة مـــن التحكم العسكري السافر، والتنفذ في شؤون الخلافة من منطلق غطرسة ذريعة ، بلغت الذروة في تلك المصاهرة الإرغامية التي زفت فيها إبنة الخليفة ذاتها إلى طغرلبك نزولا عند مشيئته..

لقـــد أضحت (الخدمة)أو التبجيل التشريفي، قسمة بين الخليفة والســـلطان ســـواء بســـواء ، بل لقد رأينا الخليفة بات يركب لملاقاة الســـلطان البويهي حين استدعته العسكرية الى بغداد ، لملء الشغور السياسي الحادث بها على إثر وفاة أخيه حاكم البلاد الأسبق...

لقـــد باتت البيعة تعقد للسلطان أولا ، ثم للخليفة بعد ذلك، ولم يكـــن الدافع الى عقدها لهذا الأخير في ذلك العهد إلا إرادة العســـكر فـــي إضفاء الشرعية على سلطانهم وتبرير جبروتهم،لأن العامة كما أســـلفنا، والمؤسســـات الدينـــية والثقافـــية كانت متعلقة بهذا المرفق الشـــرعي، فكـــان حتما أن تتكيف الدوائر العسكرية مع ذلك المبتغى العام، فتتدثر بشعاره ولو شكلا..

لقـــد رأيـــنا الخلـــيفة، حيـــن شـــكا إلـــيه الناس إرتفاع قيمة الـــنظارة(المغـــرم الإنتاجي) ، يشكو ذلك الى السلطان ملكشاة، والى الوزيـــر نظام الملك، لأن الأمر كان في يدهما، ولأن الخليفة لم يكن مـــن القوة ولا من النفوذ بحيث يستطيع أن يغير من أمر النظارة أو غيرها شيئا..

بل لقد فقدت الخلافة حتى الوجاهة الإستشارية، من ذلك مثلا ما كان للخليفة القائم مع الملك كاليجار..فقد بعث هذا الأخير إلى الخليفة يعلمه بأنه بات يحمل لقب الملك الرحيم، وطلب الإعتراف له به، وتلقبه بذاك، لكن الخليفة أبى أن يرخص بهذا اللقب، الذي رآه من خاص صفات الله كما قال،إلا أن هذا العسكري المتغلب لم يتخل عن لقبه السلطاني، ولم يراع إعتراض الخليفة، وظل يشهر به.

وسنجد الفقهاء وأهل الحرمة الشرعية يصدرون الفتوى لصالح المتغلبين من أهل الأمصار الذين يعلنون من أماكن تغلبهم عن إعترافهم بالخلافة العباسية وإنتماءهم السياسي إليها..من هولاء الفقهاء الماوردي ، فقد أجرى "إمارة الإستيلاء" وأقرها شرعا ، ذلك لأن " الضرورة كما يقول تسقط ما أعوز من شروط المكنة " .

ومنهم أيضا الغزالي فقد ذكرت بعض الروايات أنه أرسل فتواه الى إبن تاشفين السلطان المرابطي، تجويزا لإمرأته..

يقول الغزالي في كتاب حمله إلى المغرب أبو بكر بن العربي:

"..إن يوسف كان على حق في إظهار شعار الأمانة للخليفة المستظهر، وأن هذا هو الواجب على كل ملك استولى على قطر من أقطار المسلمين، وإذا نادى الملك المشمول بشعار الخلافة العباسية، وجبت طاعته على كل الرعايا والرؤساء، ومخالفته مخالفة للإمام، وكل من تمرد واستعصى فحكمه حكم الباغي.."

ثم يتحدث الغزالي عن مسؤولية الخليفة إزاء المتغلبين، وواجب إعترافه بهم فيقول:

"يجب على إمام المصر أن يأذن لكل مسلم عادل ، استولى على قطر من أقطار الأرض، أن يخطب له وينادي بشعاره، ويحمل الخلق على العدل والنصفة."

لقد اتعظ الغزالي، ومثله الماوردي وآخرون ، بالوقائع الجارية في عصرهم وبظروف المرحلة، حيث كانت عوائق الإتصال والتوصيل متكاثرة، لذا أثبت هؤلاء العلماء مبدأ الإعتراف الشرعي للمتغلبين حتى ولو لم يزك قيامهم بالأمر كتاب مسطور يصلهم من الخليفة، متى ما أظهروا هم إرادة اتباع الخليفة، يقول:

"ولا يعني أن يظن بالإمام توقف في الرضا بذلك والإذن فيه وإن توقف في كتبه المشهورة، فالكتب قد يعوق عن إنشائها وإيصالها المعاذير، وأما الإذن والرضا بعدما ظهر حال الأمير في العدل والسنة وابتغاء المصلحة للتوفيق والتعيين، فلا رخصة في تركه".

لقد كان أمر الخروج أو الدخول في الطاعة مسيورا على المتغلبين، وغالبا ما كان يحدث إما بإسقاط الخطبة في المصر المارق عن طاعة الخليفة ، أو بتعطيل الضمان وحبس ريع الخراج عن الخليفة أو السلطان، أو بمواثقة أحد الخصوم المناهضين للدولة..

لقـد بات السلطان يأذن بالخطبة لكل من يقطعه جهة من الأقاليم التـي يسيطر عليها ، إذ حاجة الدولة الى الأموال غدت ماسة، ولقاء ذلك، هان على السلاطين أن يتنازلوا عن سيادتهم للخارجين ،
و يكتفوا باستلام العوض المادي منهم، وأحيانا كان ذلك العوض لايزيد عن وعد عقيم..

بل لقد كانت التحفيزات على ضمان الخراج تبلغ في أحيان كثيرة حـد التمليك والتنصيب ..وهذا حين كان يأذن السلطان للمتغلب أن يخطـب لنفسه، وان يذكر اسمه على السكة ، بدل اسم الخليفة، لقاء حـق مـادي مستقطع لدار الخليفة..وذلك ما زاد من استفحال ظاهرة تكاثر الكيانات السياسية القزمية في مختلف الجهات الإسلامية في تلك العصور.

وربما اضطر أهل الكيانات المستضعفة إلى أن يمنحوا إعترافهم ويعلـنوا عـن تبعيتهم في ذات الآن لأكثر من خصم، وربما وجدنا أطرافا تعترف بالخلافة العلوية في مصر، وبالخلافة العباسية بالعراق في وقت واحد.

وإن التمعـن فـي الإيحـاء السـيميائي الذي كانت تحمله القاب الخلفـاء، ليكشف عن المأزق القهري الذي كان أولئك الخلفاء واقعين فيه ، فدلالة الطائع، والمطيع، والمتقي...والمتوكل..وغيرها تعبر عن واقـع موضوعي صودرت فيه سيادة الخليفة بصورة فعلية .. علما

بـأن الألقاب كانت في الغالب من إقتراح العسكر لدى تنصيبهم لمن يختارونهم خلفاء .

الحجاز موطن التقاطع بين الخلافتين العباسية والعبيدية.

وقـد كانت الحجاز، موطن الحرمين الشريفين، فضاء التقاطعات والتعارضـات السياسـية بين الخلافتين العباسية والعلوية، والموطن الروحـي للمسلمين فقد ظل التغالب السياسي والمذهبي ممارسا بتلك الربوع ، وظلت منابر المدينة ومكة تذيع الخطب والتنويهات للخليفة المتغلب..

فقـد رجحت كفة العبيديين، في عهد فتوة دولتهم، خاصة بعد أن تمركـزوا فـي مصر وتوسعوا في الشام، فكانت الخطبة الحجازية ترفع باسم خليفتهم..

علـى أننا رأينا التحول سرعان ما يحدث لصلح العباسيين ما أن يتقوى سلطانهم الزمني.

لقـد زالـت الخطـبة للعبيديين في مكة والمدينة عام 479 هـ وتحولـت إلـى العباسيين ونزعت الشارات العبيدية من باب الكعبة، وكتبت شارات أخرى بإسم المقتدي..وظل أمر الخطبة على حال من المـراوحة بيـن الخليفتيـن، أساسه الظهور العسكري ، ومضماره الصـراع المذهبـي :السني ، الشيعي الذي كان يخفي في ثناياه كل

التناقضات الإجتماعية والثقافية التي كانت تفاعل حركة الحضارة العربية الإسلامية عصرئذ.

وعلى صعيد الأقاليم نجد صاحب عكة مثلا ،قد بعث الى القائد ألب يخبره بإقامة الخطبة للقائم وللسلطان وإسقاط خطبة الخليفة العبيدي، وحذت حذوه في هذا التحول إمارات شامية أخرى، مثل إمارة ابن مرداس صاحب حلب وغيرها..

ونتيجة لذلك التغالب كانت قوافل الحج محل مساومة سياسية واقتصادية دائمة طرفاها العبيدية والعباسية.

بل لقد رأينا الممالك الخرسانية تحرص على توصيل دعايتها الى باقي الأصقاع من خلال نشاطات رسلهم في مواسم الحج، ومداخلتهم للحجيج، وقد كانت تنفق الأموال الكثيرة لإصطناع الدعاة من بين الحجيج..

وكانت الفتن تشب في الحرم أو في الطرق المؤدية إليه، فيزداد خوف الناس من مخاطر السبيل ،فيتعطل الموسم..

لقد وجدت فلول الأعراب والأكراد والمتغلبين من أصحاب الإقطاعات والإمارات في تعاطي أعمال النهب والسلب موردا ماديا يواجهون به الحياة، فلم يتورعوا عن ممارسته على أوسع نطاق، وكان ذلك يودي بالأرواح، ويزيد من تفاقم البلاء وتعميق التردي.

لقد دفع شرط تأمين سلامة الحجيج السلطان الخراساني ابن سبكتكين عام 412هـ.إلى إعطاء رشاوى لشيوخ الأعراب حتى لا يعترضوا سبيل حجيجه، ومثل هذا الصنيع كانت الخلافة العبيدية والعباسية ذاتهما تلجآن اليه أحيانا، وأحيانا كان حجيجهما يتعطل عن شهود الموسم..

على أنه يجدر بنا أن نلاحظ أن شأن العسكر لم يكن في هذا العهد التقهقري يعيش الصعود، رغم أيلولة الأمر اليهم كما أسلفنا..

لقد تأثر وضعهم بتدني القيم ، وقد كانوا في الواقع مسؤولين عليه بشكل جلي، وأضحى التدني المادي والمعنوي ينالهم ، ولم يكن لديهم من أسباب المدافعة عن الذات الطبقية إلا العسف..

لقد عرض سلطان الدولة البويهي عام 405 هـ ولاية العراق على الرخجي، فامتنع هذا قائلا:

ولاية العراق تحتاج الى من فيه عسف وخرق..

وإنها لصورة تتجسد فيها الشخصية العسكرية النزاعة إلى البطش والخرق كما رسمتها الأدبية التاريخية لذلك العصر.

فالديلم والأتراك وهما الفيئتان اللتان كان الإحتراف العسكري يخصهما يومئذ ،كانتا على مستوى منحط من أخلاقية التعامل

ومباشـــرة المهـــام النظامـــية، فزيادة على تحلل جنديتهما السافر من العقيدة، نجدهم يعطون بسلوكهم المثال الحي للخراقة والغلظة.

وإنهـــا لمنازع تتسم بها عادة نفسية المحترف، وبها يتمكن من التكيف مع متطلبات القهر التي تناط بالجندية في الأساس..

ولقد كان إعتساف الجند يحمل الناس ،غالبا، على الثورة وايقاد نـــار الفتـــنة، فالـــنظام الإجتماعي المتردي كان قد أفرز من الفئات المهمشـــة والمحرومة فواعل شغب وغصب استفحل شأنها وأضحت طرفا إجتماعيا له ضغطه السلبي على الحياة.

إنهـــا فـــئات العيارين واللصوص التي كانت تتكاثر وتتركز في الحواضر والمدن لتقابل طوائف الأعراب والأكراد ومتوحشة البادية والـــريف من فواعل الهدم التي كانت الأحوال العامة للبلاد الإسلامية تفرزها، وتشجع على تزايد أوساطها.

ويورد ابن الأثير في هذا الصدد أخبار كثير من الفتن التي كانت تقع ويتأجج أوارها لأوهى الاسباب ، وما ذلك إلا للأن قابلية التنافر والعراك قد استحكمت في نفسية المجتمع الإسلامي بعد خروجه عن مرحلة الأمان بما صصار يفشو فيه من جور وظلم وحرمان..

وممـــا رواه ابن الأثير في هذا الصدد فتنة وقعت في بغداد عام 417 هـــ.وكـــان باعـــثها تســـلط الأتـــراك (الجند) الذين" اكثروا

مصـــادرات الناس وأخذ الأموال حتى أنهم قسطوا على الكرخ (حي بمدينة بغداد) وحده، مائة الف دينار، فثار الناس وعظم الخطب وزاد الشر – كما يضيف المؤرخ – وأحرقت المنازل والدروب والأسواق، ودخـــل فـــي الطمـــع العامة والعيارون، فكانوا يدخلون على الرجل فيطالبونه بذخائره ، (كما يفعل السلطان بمن يصادره)، فعمل الناس الأبـــواب علـــى الدروب ، فلم تغن شيئا، ووقعت الحرب بين الجند والعامـــة، فظفر الجند ونهبوا الكرخ وغيره ، فأخذ منه مال جليل ، وهلك أهل الستر والخير ".

إن إشـــارات هـــذا الخير لتكشف عن أبعاد ظاهرة التحلل التي كانـــت تعـــرف عصرئذ أحد مستوياتها المتقدمة، إذ أضحت فاعلية الضبط (العسكر) هي نفسها مصدر إستبداد تفكيكي رهيب ، وكان من نـــتائج ذلك أن تذرع الناس بأسباب المنعة والتستر، وبات المكتسب المادي موضوع تنازع وإغتصاب بين آلة النظام في الدولة : الجند ، وبين فئات المجتمع الأخرى من قوى الفتك..

لقد كشف الخبر أن المصادرات كانت سبب الفتنة ، وكانت دائمة، وأن الفتـــنة تجـــاوزت نطاق التوتر والبلبلة لتؤول إلى فعل تدميري ســـافر وشامل باحتراق المنازل والدروب والأسواق.. وذلك ما أتاح لقوى النهب أن يتدخلوا ويصعدوا من الخطب ، ويعمقوا من المحنة، بملاحقـــة الـــناس الذيـــن يكونون سلموا من البلية، فينتزعون منهم ممتلكاتهم وذخائرهم .

ودفعا لهذا الشر تحصن الناس بالأبواب، إذ سوروا دروبهم دون جدوى ، وذلك واقع مازالت آثاره باقية في تجمعاتنا العمرانية القديمة..لقد أضحى بناء الأسوار حول القرى والقصور وتعدين الأبواب والإحتياط للمداهمات، من مميزات العمران في عصور التردي والإنحطاط.

وتلك حال تكيفية تعود ببعض أسبابها إلى معطيات هذا العصر الذي نتحدث عنه..

لقد عملت التفككات الإجتماعية المؤلمة على التعجيل بأفول نجم الحضارة العربية الإسلامية، وأضحى الإحتجاب هو الوسيلة الوقائية التي يعتصم بها المسلم مخافة أن يتجرد من ملكيته المادية أو الروحية..لذا ساد منطق التنكر وإظهار الخصاصة احتماء بالفقر من الشر ، وسيكون لبس الخرقة (الصوفية) على الصعيد الروحي رمزا للرضى بالمحنة..

لقد تمكن الوازع الكفافي من الوجدان الجماعي، وذاعت فكرة النكوص بعد الإكتمال وساد الأحساس بأزوف الساعة ، وعم الإعتقاد في الخوارق والأوهام.. وتكلست دينامية الحياة وجف العود، لولا أصل ضارب في الأعماق: كتاب الله حصن الأمة الفذ .

لقد كانت الروحية العسكرية في حالة شقاق وتمرد لم يسلم من بوائقها حتى السلطان، صاحب العسكر..وما أشبه حاله بحال مروض

الضواري ، لن يسلم من نهشها إذا ما جاعت ،إذ كان استخلاص الراتب يحملهم على الفتك برؤسائهم، أو الإنقلاب ضدهم، واتباع قائد آخر يرجون عنده المنال المادي..

حدث في عام 418، بعد الواقعة المذكورة سابقا ، أن الجند التركي أحس بالخطر على وجوده، خاصة وأن الفئات المحرومة بما فيها الأعراب والأكراد والعيارون قد طمعوا في الأمر، بعد الذي رأوه من ضعف الجند ، فتشاوروا وبعثوا الى الملك جلال الدولة بالبصرة ليصعد الى بغداد، حيث كان النظام منحلا، والعسكر بلا سلطان يجمع كلمتهم..فاستجاب لهم ونزل بغداد، وكان الترتيب لجلال الدولة دون مشاورة الخليفة ، وانتصب في مهمته السلطانية وضرب له الطبل أوقات الصلاة تمكينا له في الملك، غير أنه لم تمض عليه سوى أيام حتى عاد العسكر الى الشغب عليه فما كان منه إلا أن باع فرشه وثيابه، وخيمه ، وفرق ثمنها فيهم حتى سكنوا .

ويهمنا-حتى نضع القارئ في الصورة- أن نورد الواقعة كما رواها ابن الأثير بحرفيتها، لما يشي به سسذياقها من تصوير لجوانب ذلك الواقع المشحون بالترديات التي كان من نتائجها ذهاب ريح الدولة رغم شخوص وهمي للخلافة ظلت تفاعل به الأحداث من وضع احتضاري رهيب.

يقول ابن الأثير:

" في هذه السنة ثار الأتراك ببغداد على جلال الدولة وشغبوا وطالبوا الوزير أبا علي بن ماكولا بمالهم من العلوف والأدرار ونهبوا داره ودور كتاب الملك وحواشيه حتى المغنين والمخنثين، ونهبوا صياغات أخرجها جلال الدولة لتضرب دنانير ودراهم وتفرق فيهم،وحصروا جلال الدولة في داره ومنعوه الطعام والماء حتى شرب أهله ماء البئر وأكلوا ثمرة البستان، فسألهم أن يمكنوه من الإنحدار فأستأجروا له ولأهله وأثقاله سفنا، فجعل بين الدار والسفن سرادقا لتجتاز حرمه لئلا يراهم العامة والأجناد، فقصد بعض الأتراك السرادق فظن جلال الدولة أنهم يريدون الحرم فصاح بهم يقول لهم:

بلغ أمركم الى الحرم، وتقدم اليهم وبيده طبر ، فصاح صغار الغلمان والعامة جلال الدولة: يا منصور، ونزل أحدهم عن فرسه وأركبه إياه ، وقبلوا الأرض بين يديه، فلما رأى قواد الأتراك ذلك هربوا الى خيامهم بالرملة وخافوا على نفوسهم، وكان في الخزانة سلاح كثير فأعطاه جلال الدولة أصاغر الغلمان وجعلهم عنده ، ثم أرسل الى الخليفة ليصلح الأمر مع أولئك القواد فأرسل اليهم الخليفة القادر بالله فأصلح بينهم وبين جلال الدولة وحلفوا وقبلوا الأرض بين يديه ورجعوا الى منازلهم ، فلم يمض غير أيام حتى عادوا الى الشغب فباع جلال الدولة فرشه وثيابه وخيمه وفرق ثمنها بينهم حتى سكنوا"

فالمشهد غير محتاج لتعقيب.

وإلى جانب هذه الفتن الإجتماعية كانت الحياة الثقافية في تلك الحقبة ملغمة ، نهبا لحال من الشحناء التعصبية التي كانت تجد في الإنفصام المذهبي سني/ شيعي مادة استعارها..

لقد عمل التشيع البويهي على تغذية نار الفتنة بين طوائف المذهبين المتساكنين في الحاضرة بغداد وفي باقي أطراف الدولة. فقد أمر مثلا معز الدولة الشيعي في سنة351هـ بأن يكتب على المساجد ببغداد ما فحواه:

" لعن الله معاوية بن أبي سفيان ، ولعن من أغصب فاطمة رضي الله عنها فدكا، ومن منع من أن يدفن الحسين عند قبر جده عليه السلام، ومن نفى أبي ذر الغفاري، ومن أخرج العباس من الشورى..".

ولم يستطع الخليفة المطيع أن يفعل شيئا إزاء هذه الإثارة ، فقد " كان محكوما عليه، لايقدر على المنع ".

وظلت هذه المصادمات المذهبية تزلزل استقرار الحواضر والبوادي، وراحت التفاقمات تأخذ أبعادا تدميرية، حتى كانت المشاهد الشيعية والمواسم الدينية الأخرى فرصة تجد فيها الأطراف المسحوقة وعناصر الهدم في المجتمع المناخ المناسب للإنتفاض ، والنقمة، والتنفيس عن مشاعر الحقد الطبقي والعرقي والنحلي التي كان يراكمها في النفوس غياب مبدإ العدالة، وترسخ منطق المغالبة القهرية.

الـــــــدولة الحمــــــــادية:

قـــــراءة في جـــدلية التفكك أو الإنبثـــاق السيـــاسي

حيـــنما أنـــتقل العبيديون الى مصر ، لم يكن في حسبانهم أنهم ســيفقدون الموطن الذي عرف ميلاد دولتهم، إفريقيا ، بعد حين غير طويل..

فوالـــيهم الزيـــري الـــذي تركوه على افريقيا وبلاد المغرب قد اضطرته الأحوال الأمنية الى التنازل الجزئي عن سيادته في المناطق الغربـــية لفـــائدة عمه حماد لقاء تولي هذا الأخير مهمة القضاء على إجتياحات الزناتية التي كانت تهدد الدولة الزيرية من الجهة الغربية، وربما كان هذا التدبير أحد أهم أسباب التشرخ والتفكك التي ستطرأ على بنية الكيان السياسي للدولة العبيدية التي توسعت من المغرب الى المشـــرق وفـــي خلـــد حكامهـــا أنهـــم بصدد التمكين لخلافة شيعية ستستوعب أرض الاسلام من أقصاها الى أقصاها..

لقد أثر عن المعز لدين الله الفاطمي أنه أوصى خلفه الذي اختاره والـــيا على إفريقيا بكلمة أجمل فيها أمورا كان يقدر أنها ستمكنه، اذا مـــا رعاها، من ضمان الإستقرار لبلاده، وبقاء الحكم في يده، على اعتبار أن البلاد ستظل جزءا من السيادة العبيدية.. لقد طلب اليه أن يلتزم بثلاث مسائل يقيم عليها سياسته ، استبقاء للأمر في يده:

ألا يـــرفع الجـــباية عن أهل البادية، ولا السيف عن البربر، وألا يولى أحدا من إخوانه وبني عمه"

ومن الواضح أن الوصية تركز على عنصري التخضيع والتفرد بالسلطة.

فإجراء الجباية على البدو كان الهدف منه، كما نستنتج، وضعهم، وبصـــورة دائمة، تحت طائلة المطالبة والتغريم السلطاني ، وذاك ما كـــان ســـيجعلهم في موقع المسود، والمعترف بالدولة، والمتطلع الى رحمتها باستمرار..

ومن جهة أخرى تنصح هذه الوصية الحاكم بسلوك مسلك الشدة مع البربر ، إذ تشيرعليه بأن يتبع إزاءهم سياسة قهرية لاهوادة فيها: اســـتخدام الســـيف، كفـــا لنزوعهم التمردي ، والحيلولة دون وازع الخروج عن السلطان الذي كان المعز يلمسه مكينا فيهم..

كمـــا أن الوصـــية تعرض الى العلاقة السلطوية التي ينبغي أن تكون بين شخص الوالي وآله.. علاقة تفرد واستقلال بالسلطة لاينبغي أن تدمج في شأنها السلطوي أحدا من أصوله أو من فروعه..

والواقـــع أن الوصـــية فـــي إشـــارتها الأخـــيرة، تتجاوز نطاق ظرفيتها،إذ هي تنشد حالا لم تكن العصور الوسطى على الأقل مؤهلة للخروج عن منطقه.

لقد ظلت العصبيات الأسرية والقبيلية أساسا لتنازع السلطة وتوارثها في شريط تقلبات الأوضاع السياسية عصرئذ، وفي جدلية قيام الدول وسقوطها..

ولا بدع أن نجد ابن خلدون وهو عالم سيضعه عصره من خلال موقعه التمرسي والتأملي، على صلة مباشرة بالفعل التعصبي ، يقرر بشأن الظاهرة السياسية والسلطانية شرطا عصبيا يمكن لها ويمهد الطريق إليها..

وإذا كنا نفترض أن مبادئ الوصية المعزية كانت تمثل المسطرة الذهبية التي ظل الساسة يومئذ يعتمدونها لدوام الملك وبقائه في أيديهم، وأن هذه المسطرة قد شرطت لبلوغ هدفها أمورا هي قمع مطامح ذوي القرابة في التولية ،وتدجين الأهالي البدو من خلال إستبقائهم تحت نير الجباية، وانتزاع الطاعة من الحضر (البربر) بالقوة، والاستبداد بالسلطة واصطناع الحاشية المتحركة بحوافز الترغيب والترهيب ، فمما لا ينبغي أن يفوتنا في هذه المسطرة هو تغاضيها عن تحديد الأسس البناءة التي يقتضيها الملك ، لا سيما شرط العدالة ومنابذة مظاهر الظلم والجور التي بها يأنس الناس للسلطان .

فإشكالية الحكم بمعناها البطشي كانت تجد في ثالوث: الجباية – السيف – الإستبداد بالسلطة، ترجمتها وصورتها ، وهو ما رجح عوامل الفتنة والصراع.

قد كانت الدولة في القرون الوسطى تتبلور من خلال هذه المبادئ التخضيعية، إذ كانت تنشد دوام حياتها من خلال الأخذ بإلزامات قهرية تفرضها على الرعية، وهو ما جعل عمرها لا يطول..إذ كانت تلك الالزامات غالبا ما تنتهي عند حد تلبية حاجات أسرية وفيئوية كان يتوقف عليها أمر تماسك الملك وثبات عصبيته.

ومن البديهي أن منطق الإلزامات كان يعني غياب المشروع، فنظام دولة العصبية كان إبتزازيا لا اعماريا ، وحتى ما ينشأ من عمارة يدخل في حسابات العصبيات غالبا .. وذلك ما يفسر كلال أغلب محاولات التجديد السياسي التي قامت بها العصبيات والدول المتغالبة والخلافات المتنافسة.

وبغض النظر عن قيمة الرؤية التي صدرت عنها وصية المعز التي رأيناها آنفا، فإنه لجدير بنا أن نستعرض الوقائع التاريخية التي تلت تلك الوصية، والمآل الذي عرفته الخلافة العبيدية من حيث علاقتها بالأرض التي تحولت عنها وبالقوم الذين عرفت بينهم واقعة الميلاد والظهور..

فاتحة العهد البربري بلكين بن زيري بن سناء الصنهاجي الذي استخلفه المعز على إفريقيا عام 361 ودام عهده من 362 – 373 هـ. حارب زناتة وصد مغراوة من المغرب الأوسط فالتحق الزناتيون سياسيا بالمنصور بن ابي عامر الأندلسي،وعملوا (تابعين) له في فاس والمغرب،ثم ساءت العلاقة فتحاربا، فتوسع المغراوي

وعوض ما سلب منه ابن ابي عامر من البلاد ،بما أخذ من أراضي المغـــرب الأوســـط ، ودامـــت دولـــة مغراوة قرنا وانتهت على يد المرابطين عام 461 هــ.

تولى بعد بلكين ابنه المنصور فظهرت بوادر الإنشقاق ،إذ خالفه أخـــوه والـــي تـــيهارت وتحاربـــا، ولما كانت زناتة دائمة التربص بالزيريـــين، فقـــد اســـتعان المنصـــور بأخـــيه حماد فبرز حماد في الميدان،قائدا محنكا..

ثـــم تولـــى باديس بن المنصور فوجد شخصية حماد قد استوت، واحتلت الصدارة العسكرية، فاستعان به ضد زناتة وبسبب صغر سن بـــاديس وضعفه خرج عليه بعض أعمامه، فأستغل حماد الظروف ، واشـــترط واشـــتط فـــي شروطه على باديس الذي انتدبه الى حرب زناتـــة..ومـــن جملة شروطه التنازل عن إقليم (أشير) وما إليه من مناطق ، وكذا الجهات التي سيحررها حماد.

كان المغرب الأوسط جزءا من إفريقيا، وكان الصراع دائبا بين الزيـــرية والمغراوية، وهكذا اضطر باديس إلى البحث عن اتفاق مع عمـــه يملكه بمقتضاه آشير وكل ما يفتحه من بلاد زناتة مقابل صد الأعداء عنه.

فـــي تلـــك الأثـــناء رشح الخليفة العبيدي الحاكم بأمر الله –من مصر–عامله المنصور بن باديس لولاية العهد وأوعز بزحزحة حماد

مـــن ســـيادة بـــلاده بإقليم أشير ،إذ كان حماد قد أعلن خروجه عن المذهـــب الشـــيعي، فتصادم مع باديس وانهزم، فانسحب إلى القلعة ليحاصره باديس هناك، ثم مات باديس فجأة، فأستعاد حماد المبادرة، وتولـــى الأمـــر المعـــز بـــن باديس الذي كان صغير السن، فأنتهت الصـــدامات بيـــن حمـــاد وبيـــن المعـــز بالصلح، وكانت التوجهات الإستقلالية عن المركزية العبيدية قد بدأت يومئذ تشغل بال الزيريين أكثر فأكثر ، فقبلوا الصلح مع حماد.. وتم الإعتراف بدولته..

وهكذا كان أول خروج عن السيادة العبيدية على يد حماد.
(بدء تفكك بنية ثالث خلافة إسلامية).
وفي عام 407 حذا المعز بن باديس حذو حماد في الاستقلال عن العبيدية.

سيـــرورة التحلل والتفكك كما عانتها الولايـــــة الزيريـــة فـــي كنف الخلافة العبيديـــة.

لقـــد مـــرت الزيرية بعهود تعاقب فيها عليها ملوك قبل أن يقع تفككهـــا وتـــتحرش بهـــا الدول والقوى الخارجية، ويمكن أن نسجل كرونولوجيتهم وأهم ما عرض لها من أحداث على النحو التالي:

عهد بلكيـــــن
عهد المنصـــور
عهد بـــــاديس
عهـــد المعـــــز

عهد المعز ومن
تلاه من أبنائه
تاكتيك الحماديين بإعادة الاعتراف بالعبيدية.(وهو ما قام به الأمير القائد بن حماد).
تفكك الدولة الزيرية واقتسامها بين الأسرة الزيرية / الهلالية / والحمادية.

الزحف النورماندي يستولى على ثغور افريقيا وبجاية.

المد الموحدي الناشئ بقيادة عبد المؤمن يفكك ويستوعب الكيانين: الحمادي والزيري، ويتصدى للنورماند ويطردهم.
(إعادة التشكل).

فسيرورة الإنقسام ، بدأت على هذا نحو جرثومية، خلوية.

فالانقسام بدأ ثنائيا : الحمادية تخرج عن الزيرية ، ثم لا يلبث أن ينزع الانقسام نحو التشكل والتكاثر، فقد أسفر نتيجة التنابذ العائلي الزيري عن إنبثاق كيانات زيرية في الأندلس بعد أن هاجر بعض إخوة بلكين إليها..وفي خضم الصراع على الملك، تنشط دينامية الإنقسام وتقوى جدلية التجاذب والتنابذ، فالجزء يخرج عن الكل ، فيباشر الكل عملية الإسترداد، وفي غضون ذلك يظل الجزء المنفصل عن الكيان يسعى لإكتمال أسباب النمو وصيانة الذات الناشئة

وتقويتها لا ليحافظ على إستقلاليته فقط ، ولكن ليستوعب المحيط المتربص به والذي يعمل بلا هوادة على إفنائه في بنيته من جديد..

فالجزء تنزع به المطامح لأن يصير كلا، و قد ينجح ، ففي الحالة الحمادية أوشكت العملية أن تتحقق.. وبقي الزيريون يقاومون الأطماع والمداهمات الداخلية والخارجية ، ولم يتمكن منهم الحماديون(الجزء)بالرغم من تكرر المحاولات وآخرها كان في عهد يحي بن العزيز آخر الأمراء الحماديين..

وقد تظل العملية مد جزرية، حتى تتهيأ الظروف لكيان أقوى يداهم المشهد، فيستوعبه كلية، كما حدث للمغرب والأندلس على يد المرابطين..

فالتشكل السياسي للكيان الحمادي داخل بنيته العضوية : بني زيري من جهة وضمن الكينونة السياسية والروحية العبيدية باعتبارها الماهية الخلافية (خلافة) الإطار ، قد اتسم بارتباط مرحلي تولى فيه بلكين- ممثل الخليفة العبيدي بإفريقيا- القيادة وضبط البلاد، ثم بدأت أعراض التفكك الداخلي تبرز مع من أعقبه (المنصور ثم باديس) حتى كان عهد حماد الذي تميز بتفاقم الضغوط العسكرية المتزايدة التي كانت تمارسها مغراوة الزناتية على الحماديين، عندئذ تحتم على باديس أن يتنازل عن جزء من سيادته لصالح حماد اتقاء لشر الإعتراك الدائم ، وكان ذلك التنازل أول شق يصيب جدار الوحدة..

لقد كان حماد على وعي بالوضع الذي تعيشه الدولة الزيرية،وخاصة في ظل تحرشات النورماند، فكانت شروطه على باديس أساسية، تطلع من ورائها إلى تحقيق سيادته على مناطق ولايته..

وإذا كانت ردود الفعل الزيرية المباشرة ضد استقلال حماد عنهم قد جاءت صارمة ، وقوية ، وقاسية ،إذ حوصرت عاصمة القلعة سنتين نال فيهما المناطق العمرانية كثير من التخريب..فإن وفاة باديس المفاجئة كانت من أسباب الإنفراج التي أسعفت حمادا على الإحتفاظ بإمارته..

لقد أفضت الإتصالات بين حماد وبين المعز إلى عقد نوع من المصالحة والتراضي، وتم تبادل الاعتراف بين الطرفين. وكانت رابطة المصاهرة لاحما آخر يدعم رابطة الدم ويمد جسور التساكن وحسن الجوار بينهما..

وسيعرف عهد الأمير المسمى: القائد بن حماد (ذلك العهد القصير) تحسنا في علاقة الحماديين بالعبيديين على حساب الزيريين، لقد أعاد الإعتراف بالخلافة العبيدية بعد أن رأى المعز صاحب إفريقيا يقطع علاقته بهم، وكان من نتائج ذلك أن أرسل العبيديون بقبائل بني هلال لتخريب ملك بني زيري..الخارجين عن سيادتهم.

أتاح ذلك التواصل التكتيكي بين القائد وبين العبيديين ،للإمارة الحمادية أن تظل إلى حين، بمنأى عن الدمار والإجتياح الهلاليين، وذلك ما ساعدها على تحقيق نهضة سريعة، وفي مختلف المستويات..

لقد باتت الهجرات تقصد إلى الحمادية من حواضر إفريقيا ، بعد أن تخربت القيروان وتحول عنها المعز الزيري إلى المهدية، وظلت القبائل الهلالية تستولي على المدن تباعا، وتخربها، ولم يكن أمام أهاليها سوى الخروج بأمتعتهم ومهاراتهم الى القلعة الحمادية.

كما كانت القلعة تستقبل في ذات الوقت الجماعات والأفراد سواء منهم الفارين من السلطان المرابطي الذي كان يتمركز في المغرب ويتطلع إلى القلعة، أو المتقاطرين عليها من الاندلس وصقلية التيسقطت في يد المرابطين وما ترتب عن ذلك من نزوح كبير للأندلسيين نحو القلعة..

فالإستقرار النسبي الذي تميزت به القلعة ، والإحساس بالأمن الذي توفر لها، قياسا بالمحيط الإقليمي من حولها جعلها تغدو مثابة تتجمع فيها مستويات بشرية وثقافية وحضارية مختلفة تعكس مشارب وألوانا عدة، مكنتها من أن تبني مجتمعها، وتؤصل نموذجا مدنيا وعمرانيا على مستوى عال من الرقي والتطور شهد أجلى مظاهر إمتيازه حين تحولت الحاضرة الحمادية من أشير إلى بجاية.

ذلك التحول الإستراتيجي الذي كان المنصور الحمادي يتطلع من حلالـــه إلى الإستحواذ على ملك إفريقيا بكليته، بعد أن أفلحت الدولة الحماديـــة في استلحاق عدد من المدن والأقاليم التونسية بكيانها، إما بـــالقوة أو بالإختـــيار ، مـــثل ما فعل سكان مدينة تونس، إذ أعلنوا تبعيتهم له طاعية .

لقـــد تمكنت الإمارة الحمادية في عهدي الناصر والمنصور من أن تـــتفرغ للتعمير والتشييد، فبالرغم من الحركة القتالية المتواصلة التـــي ميزت العهدين والتي كانت مركزة على الأطراف، ضد زناتة، ومغـــراروة، ثـــم لصد التوسع المرابطي الذي كان يتخذ من تلمسان قـــاعدة انطـــلاق نحـــو تيهرت، وآشير، والجزائر. والشلف، إلا أن الهـــيـــبة التي باتت تتوفر للدولة الحمادية كانت تجعل محيطها ينظر إليها بحذر لا مراء فيه.

ظـــاهرة الإنقسام من خلال الشاهد الحمادي :

الجـــزء المتـــــجـــزيء

فـــي البدء كانت البنية نمائية ، إذ توسع الكيان نحو أرجاء جديدة واســـتدعى التوســـع تحويل المركز= الحاضرة إلى موطن يضمن الحيوية للدور السياسي الجديد.

فالإنقســـام بدأ جهويا إذ الكتلة المتحول عنها لم تخرج عن نطاق طاعـــتها كـــل الأطـــراف المكونة لها، ولكن جزءا منها فقط باشر المروق.

الجزء يخرج عن الجزء.
الجزء التابع يخرج عن الجزء المنفصل فيترسخ الإنشقاق.

الكـــيان الأم يفشـــل في مد يد العون إلى الفرع التابع له من أجل إعادة الجزء الخارج إلى الحظيرة، فينتج عن هذه الحال بالإضافة إلى ملابسات أخرى، الإستقلال والتفرد بالسيادة .. وذلك ما سيعمل على الدفع بأجزاء تابعة أخرى إلى سلوك سبيل الإنفصال..

الكيان المركزي يتحول بمطامحه نحو البحث عن جهات بديلة .

لقـــد كان المركز العبيدي طامحا لإستيعاب الشام كمرحلة أولى في طريق احتواء بغداد أوالخلافة العباسية، فكانت قواته مستثمرة في ذلك الإتجاه.

كـــان الجـــيش والقادة الكتاميون والصناهجة الذين ارتحلوا مع الخلافة العبيدية يفاعلون الشام للإستيلاء عليها..الأمر الذي هيأ لقبائل الـــبدو الهلالية دورا في عملية التفكك وإعادة التشكل الناتجة عن ذلك الوضع الجديد.

لقد انتهت تلك القبائل يومئذ كأسراب الجراد إلى صعيد مصر قادمة من الشام والعراق والحجاز..فكان الإجتياح شبه طبيعي، إذ استوطن الهلاليون المغرب، واتخذوا من البلاد فضاء للحركة والفعل..

فقرار استخدامهم كان دون شك من تدبير أكابر كتامة وصنهاجة الذين وجدوا فيهم جحافل شبه مهيأة لضرب الإنفصاليين من ذويهم في (فريقيا)على ذلك النحو الذي سيخل كثيرا بشرط التوازن السياسي والاجتماعي والمدني في المنطقة ،زيادة عما أتاحه القرار من فرصة التخلص من ضغطهم الفظ ، المتقلب، ومن مخاطرهم على دولة العبيديين التي كانت تنشد التوسع والسؤدد على الخريطة الإسلامية برمتها..

بهذا التطور الخارجي والداخلي ، الفوقي والتحتي، كان التفكك في كيان الدولة يقع والقطيعة بين الجزء والكل تتوطد..

على أن عناصر الصراع ستظل تتلقى من المعطيات الداخلية فواعل تحريك ذاتية أساسية، متمثلة في حال العداء التي يقوي منها الشقاق بين الأفخاذ القبيلة الأصل.

ففي المغرب كانت زناتة في صدام متواصل مع صنهاجة، وقد لعب الصراع بين الطرفين في مرحلة أولى دورا في ابراز قادة كان شأنهم الحربي في الميدان قد أشهرهم ودفع بهم إلى موقع القيادة

السياسية والتطلع إلى الإنفصال، مثلما حدث لبلكين الحمادي..إذ صراعه ضد زناتة أظهر شمائله وهيأه لأن يشق عصا الطاعة ويخالف على ابن عمه المعز الزيري.

يحدث هذا دون أن تتمكن البنية الإطار كما أسميناها (الخلافة العبيدية) من التدخل البناء: إذ تدخلها بواسطة ارسال البدو الهلاليين كان في الواقع هدميا انتقاميا سلبيا لم يحقق لها هدف الإستبقاء على وحدتها..

وسيكون مصير الخلافة ذاتها مصير أقاليمها المنفصلة عنها..أي الإضمحلال، والزوال ، أو التشكل في ملامح مغايرة وضمن صيرورة مخالفة، وذلك ما كان من حال العبيديين، فبعد أن فاعلوا المشرق، وانتزعوا الإعتراف من أطراف إسلامية كثيرة، واكتسبوا مشروعية الإمرة والإشراف على المواسم الملية الكبرى، وفي مقدمتها الحج ، انحسر سلطانهم، واخترقته تفاعلات سياسية تشكلية أخرى ظلت الخلافة السنية في بغداد تفرزها وتنفعل معها ذاتيا ومحيطيا في سعيها لمغالبة أسباب السقوط..

لقد كان الزحف الأيوبي على القاهرة من عوامل القضاء على الخلافة العبيدية، بعد أن تعددت تضعضعاتها الداخلية والخارجية، وواجهتها ذات الأوضاع تقريبا التي واجهت الكيان الزيري، ذلك الجزء الذي كان منها ، وانفصل عنها، واضمحل في آخر الأمر..

لقــد أخــذ التشكل مظهرا تراجعيا، فتفككت الدولة من الداخل، وفقــدت أطــرافها الخارجــية، وأضحت في صراع مع بعض تلك الأطراف : جدلية المغالبة بين الجزء والكل..

ثــم جــاءت الــنهاية علــى يــد قوة تهيأت لها شروط الظهور والتمكــن،إلى حين،هي القوة الأيوبية التي ورثت الوضع، وباشرت الحياة السياسية التجميعية بالمشرق،على نحو ما كان عليه حال الدولة الموحديــة بالمغرب، إذ باشرت هي الأخرى عملية تشكيل موازية، وغــدت تصوغ مشهدها من كيانات كانت موجودة هناك، قامت على أنقاضــها لــتؤدي دورها ، وتمضي على ذات الدرب الدوري الذي كانت تمضي فيه الدول إلى أن يأفل نجمها ،ويتمكن منها الإنهيار.

وممــا تجدر الإشارة إليه أن فواعل التفكيك والتفكك كانت تقريبا واحــدة في أرض الإسلام ،فقد رأينا قيام الدول وسقوطها تساهم في صــنعه الحــركة الداخلــية الذاتــية، إذ تدخل في مصارعة ومغالبة الأطراف المتنافية ،وتساهم فيه أيضا العوامل الخارجية ،وفي مقدمتها الحــرب التي كان الصليبيون يشنونها على دار الإسلام عبر جبهاتها الــبحرية المترامية والمفتوحة على مخاطر تأتيها باستمرار من قبل دار الكفر بسبب التناقص المتفاقم في عدة التحصينات والقوة الدافعة..

لقــد كانــت حال الشام تتشابه مع حال بلاد المغرب ،من حيث تعرضــهما فــي وقــت واحــد تقريبا للهجمات الإحتلالية الرومية والنورماندية..

ولقد رأينا المسلمين يقابلونهم باستجابة واحدة تقريبا، فإلى جانب المواجهــات العسكرية ،كانت هناك المهادنات ،بل والإرتباطات ،فقد كــان مــن الــ[illegible] ا فضل الدخول طواعية تحت الحكم الأجنبي ،وربما كان التر[illegible] التام والفوضى الغامرة تحمل البعض عل سلوك ذلك السبيل الإستسلامي القهري.

علــى أن ظاهرة التفكك التي شرطت فعل قيام الدول وسقوطها فــي الحضارة الإسلامية قد انعكست في سلوكات واستجابات دموية مــتطرفة، فقد كان الهدف التغالبي يعتمد أساليب التقويض القصوى ، ولذلك ابتذل منطق التصفية الجسدية الذي كانت توازيه على مستوى العمــران، ظاهــرة اهــدار المنشآت والممتلكات، وتلك هي بالذات مظاهــر الــتوحش، والــنكوص التمدني والحضاري..وهو ما يميز تقريــبا تفاصــيل ســائر وقائع التشكل السياسي التي عرفتها المدنية العربــية الإســلامية في حقب انحطاطها، وخاصة بعد القرن الرابع هجري..

وسنحاول استقراء شيء من مظاهر التطرف العنيف التي ميزت ظهــور الدولــة الحمادية من خلال سلوك زعمائها، وما اتصف به حكامها من نعوت سجلها التاريخ بشأنهم.

رصد لبعض فواعل الخلاف، ومظاهر التصفية في العهد الزيري الأول.

- أبـو البهار بن بلكين والي تيهرت يخالف أخاه المنصور الحاكم الزيري..والمنصور يحتويه ويحسن إليه.
- حماد كان كثير التخريب والهدم للعمران ،كثير القتل للناس في معاركه ضد باديس الزيري – قتل الشيعة وأظهر السنة.
- القـائد بن حماد : يصفه ابن خلدون بأنه كان جبارا، وقد أخضع زناتة بالحرب
- محسـن بـن القائد: امتاز بالاستبداد.والقسوة الشديدة، إذ قتل من أعمامه أربعة.
– بلكيـن بـن حمـاد : اتهم جماعة من بينهم زوجته بقتل أخيه مقاتل، فأعدمها وأعدمهم .
- الناصـر بن علناس : انتقم لأخته (زوجة بلكين) فخادع بلكين كأنه يسلم عليه، وطعنه ، وذبح زعيم زناتة بسكرة على بن بركان.. بيده.

أوعز بقتل زعيم آخر زناتي بسكري ، فهيئ له طعام وأشير الى الحاشية بقتله هو وأصحابه عند انكبابهم على الطعام، ففعلوا وأرسلت الرأس الى الناصر، فنصبها على باب بجاية.

- **المنصـور بـن الناصـر** : تـزوج بابنة زعيم زناتة ، ولكن المخادعـات الحربـية تجـددت بيـن الطرفيـن، فتواجه المنصور والمرابطون أسياد زناتة ، فانهزم،ودفعه الحنق الى قتل زوجته أخت ماخوخ الزناتي .

بـاديس بـن المنصـور : قتل عامله وعامل أبيه على بجاية، وأسـاء الـى أخيه العزيز والي الجزائر فعزله ونفاه، وألقى ببعض

الصـالحين الى الأسود وهو حي، وتوعد أمه بالقتل..ويقال إن موته نتج عن تسميم أمه إياه..

العزيـز: عهـده عهـد سـلام، ومهادنة، وكان هو الذي أخرج المهدي تومرت من بجاية بسبب المشاغبة التي أحدثها مرور الداعية هناك.

يحي بن العزيز : كان ،كما يصفه بعضهم، فاضلا، حليما، فصيح اللسـان والقلـم ..مولعا بالصيد كلفا بالملهين يحضر منهم عنده نحو العشـرين بين رجل وامراة من شيوخ وعجائز حمقى، ويستلقي في بيـته علـى الفراش الوثير الحشايا ، ويستدعي المضحكين وجوارح الصـيد ، فيختـبر هـذا الـبازي ويتفقد هذا الكلب، ويستنهض هذا المضحك في النوع الذي يسلكه فيلهيه ويضحكه، فلا يزال كذلك إلى أن ينام، ثم يغتدي إلى الصيد..هكذا انقضت ايامه."

- تقـاعس عـن نصـرة الحسـن الزيري الذي كان النورماند يطـرقون أرضـه، ودخل معه في حرب كانت نائجها وخيمة على الطرفين، إذ زحف النورماند على ثغور المغرب الأوسط وافريقيا..

هـذا ، وينبغـي أن نشـير إلـى أن مظاهر الإستئصال لم تكن تسـتهدف الإنسـان وحده ،بل كانت تطال الحواضر والعمران.، لذا رأينا امحاء حواضر باكملها ، وكان ذلك يتم في نطاق جدلية التدافع العنيف التي كانت تحكم علاقة القوى المتغالبة.

فلقد تخربت القيروان مثلا نتيجة أعمال العنف والإجتياح الهلالية، ومثلها تهدمت القلعة عاصمة الحماديين الأولى ،وكان تهديمها على يد الهلالية أيضا وبحصارات وتهديدات الجار الزيري كذلك..

على أن منطق الهدم هذا لم يكن السائد وحده ، بل لقد رأينا الإنبثاق الحضاري ما يلبث أن يعقب أعمال الدمار..

فلقد شيدت بجاية مثلا حين استحكم الخراب في القلعة وتعسرت المعيشة فيها .

وهذا المنطق رأيناه يشمل تقريبا الأمصار والأقاليم كلها. فقد كان زوال ملك في جهة ما، يترتب عنه-غالبا- انتعاش أو انبثاق ملك في جهة مقابلة، وذلك بفعل هجرة الناس وتحولهم إلى فضاءات عمرانية بعيدة عن الفتن والملاحقات.. غير أن دافعية الانبثاق تلك لم تكن على ذات المستوى والوتيرة اللذين كانت عليهما دافعية الدمار.

لذا راحت مظاهر التجدد والخلق تتقلص بتسارع متصاعد تقريبا،فشمل الناس جو من البؤس والقلق الوجودي ، وراجت معتقدات روحية استقالية ، وخمد الإبتكار، واطرد الإجترار ، وعاش المسلمون منغلقين في حدود ذاكرة تحسرية، لا تكاد تتداعى إليها صور الاشراق والعزة لأن المسلمين كانوا يعيشون أحوالا من

الحنين مفعمة بالتفجع، فكان لهم من ثمة في الإستكانة والإنقياد الى قدرية فصامية سبيلا للتكيف والإحتمال..

و لعل ما كان يضفي على هذه الجدلية التي كانت تربط بين العناصر والجماعات المفاعلة ، طابع الحذر والتطرف، ، هو ارتكازها على منطق الإلغاء غالبا ، إذ كانت الحلول الوسطى التفاوضية غائبة وغير واردة ، وإن هي اعتمدت فلمقاصد تربصية غالبا، لأن السلامة كانت تتحقق على شرط اعدام الآخر ونفيه ، سواء أتعلق الأمر بالأفراد أم بالجماعات ،لذا كان أسلوب الفتك هو القاعدة التي تتوسل بها القوى المتطاحنة إلى أهدافها .

على أنه كان للأطراف المتنازعة في صلة المصاهرة، وجه من أوجه التهادن ومد الجسور..

من هنا كانت الصلات الدموية في الحالين: المغالبة والمساكنة ، هي إطار المعادلة الإيجابي الذي كان يقوم عليه التعامل السياسي بمظهره الايجابي في تلك العهود التي كانت فيها العملية السياسية تراوح في شبه حلقة مفرغة، إذ كانت الجماعات والأقوام والدول تتعاقب وتمارس أحوالا من تجربة القيام والسقوط من خلال فعل التفكك والتشكل الذي كان عامل الدم والرحم يقوم فيه بدور مهم ، بناء وهدما..

لقد تقصدنا التطرق إلى الظاهرة السياسية الدورية التي كانت عملية تشكل الدول وانهيارها أبرز تجسيداتها.

ومن نافلة القول تأكيد الطابع المأساوي الذي كان ينعكس بالسلب على الإنسان المسلم خاصة والحضارة والعمران عامة.

لقد كانت الصيرورة السياسية في عصور مدنية المسلمين تلك، تتخذ شكل المخاضات المبتسرة المتلاحقة..

فباستثناء مراحل ابتدائية، رأينا فيها الدولة، أو بالأصح الخلافة، تتمكن من انجاز مشاريع عمرانية وثقافية وحضارية تتصف بطابع الرسوخ وبالمردودية الأدبية أو المادية المحسوسة، فإن مراحل الضعف والتحلل قد طغت على تاريخ المسلمين ، وكانت الفتن لا تني تعاود هدم كثير مما يبتنونه ، وهو ما جعل أعراض التفكك الداخلي في المجالات الإجتماعية والسياسية تتكاثر وتتعدد .

قد نشب في الجسم مخلب الإنقسام والتشتت ، وغدا التقاتل والصدام من مظاهر الوجود المدني الاسلامي ، وبذلك كانت الدول الاسلامية تعيش التصدعات، وتسير بسرعة نحو الإنحدار والإنهيار.

إن هذه الآلية المخاضية، المأساوية، الدمارية، شبه الحتمية، هي نفسها تقريبا التي كونت الإطار السياسي والاجتماعي والعمراني لميلاد دولة بني حماد، وهي التي اكتنفت بتأثيراتها النفسية والثقافية

الظاهرة الحضارية ووسمت بميسمها شخصية الانسان الحمادي ، سيد المغرب الأوسط، في ذلك العصر، وجعلته يتقهقر شيئا فشيئا نحو عالم القدرية والتوكل السلبي والاستقالة الحضارية.

ترى هل يسوغ لنا أن نسجل ظاهرة شيوع الفكر الاستسلامي منذ ذلك العصر ، رغم كون العصر عصر فتوة البلاد المغاربية حقا ، إذ عرف أثناءه كل من المغرب الأوسط والأدنى ظهور الدولة البربرية الاسلامية ، وإقامتها لملكها الأصيل ، بعد أن شبت عن الطوق في ظلال المدنية الاسلامية واستمدت منها الرشد والقدرة.

كان يمكننا أن ننخرط في إحصاء مآثر الملك الحمادي ، وإشعاعه المدني والعلمي على مدى غربي المتوسط ، لكننا آثرنا أن نلفت الانتباه إلى بعض ما يفيدنا به الأدب، باعتباره وجدان الأمة ، من أحوال روحية وشعورية كانت قد بدأت تلابس النفسية الجماعية وتتمكن من ضمير الأمة ومعنويتها ، الأمر الذي كان له سيء النتائج.

إن حرصا على ابراز جوانب الارتخاء التي كانت تستحكم من جسم الحضارة الاسلامية عبر مختلف أمصارها ودولها يبرر لنا أن نتوقف عند قصيدة ظهرت في تلك المرحلة ، صاغتها قريحة مغربية ، لشاعر يعرف بابن النحوي ، وكتب لتلك القصيدة أن تعرف من السيرورة ما جعل الجماعات المسلمة تحفظها وترددها وتشهرها لدى حلول كل خطب ، إنها قصيدة المنفرجة.

ولن يكون تناولنا لها هنا من قبيل الدرس التحليلي ، فذاك مجاله غـير مجالـنا الآن. لكننا سنقتصر على معرفة منحاها المضموني ، فضلا عن شيء من حياة مؤلفها.

فبذلك سيتاح لنا أن نتحسس حقيقة الجو التحتي ، الملابس للمناخ العام الذي كانت فيه مدنية الحماديين تنشط وتتوسع.

ابـن النحـوي غـزالي المـغـرب

يمكننا إختصار حياة إبن النحوي كما سردتها المراجع المتوفرة لديـنا فـي سطور، فهو فيما ذكرت تلك المصادر من مواليد مدينة توزر (افريقيا) ، وقد رجح تاريخ ميلاده ب 433..نشأ وتعلم ببلدته ، وكـان مـن بيـن الأساتذة الذين التقى بهم وأخذ عنهم أبو الحسن اللخمي، فقيه وقته ..

وكانت لابن النحوي أسفار لعل أهمها كان إلى الحجاز، فقد رحل إلـيها حيث انقطعت بها أخباره عن أهله أعواما عديدة حتى عد في حكـم الأموات ، ويكون قد أقام في مصر حينا ، إذ وجدناه يذكر في بعـض تشوقاته الشعرية مصر ، ويعرب عن حنينه إليها ، مما يؤكد اقامته فيها..

ولا شـك أن اختراقه للآفاق في تلك الغيبة الطويلة إنما كان من غاياتـه التوسع في العلم واكتساب المعرفة، على غرار ما كان يفعل طلاب العلم في تلك العهود.

وتذكر بعض المصادر أنه حين عاد إلى بلده، وجد حاكم البلد قد اسـتبد بأمواله وأبى أن يعيدها إليه، فخرج ابن النحوي ضاربا في الإرض بحثا عن العوض وذهاب الصيت .

ولاشك أنه في خرجته تلك كان يتسلح بالعلم الذي استوعبه من أسفاره المشرقية..لذا رأيناه ينتهي إلى سجلماسة فيجلس إلى التدريس بمساجدها ، لكنه سرعان ما تصادم مع سلطة المدينة، حين رأوا أن منهجه التعليمي ومادته التدريسية كانت تشذ عما ألف الفقهاء تدريسه هناك، وهكذا خرج ابن النحوي ليحل بفاس حيث سيلقى نفس المصير بهـا ، إذ أخـرجه قاضـي البلدة بعد أن علم أنه يدرس الأصلين : أصـول الديـن ، وأصـول الفقـه ، فعـاد إبن النحوي إلى القلعة، (بالجزائـر) ،وهـناك اشـتغل بالـتدريس مخـتازا عـيش التزهد والنسك..إلى أن وافاه الأجل بها عام 513هـ.

إنهـا ، كمـا نلاحـظ، خيوط حياة تغلب عليها الحركة والتنقل، تذرعـت بالسـياحة والضـرب فـي الآفـاق تحقيقا للكفاية الأدبية والمعرفـية، ، لكنها عوكست بشروط واقع اجتماعي وثقافي كان من ميزاته:

-1 الجـــور وظلـــم الســـلطان..فقد استولى الحاكم – كما تقول الرواية– على أملاكه وأبى إعادتها إليـــــــه بعد رجوعه من رحلته.

-2 المناهضة الفكرية التي جوبه بها في كل من فاس وسجلماسة والتـــي اضـــطرته إلـــى الرحيل والعودة إلى القلعة ، حيث سيستقر ويتزهد.

علـــى أن أهـــم مـــا يطبع هذا الواقع الذي عاش في أكنافه ابن الـــنحوي، هو حركيته. ذلك أن حركة التدافع والتغالب فيه لم تكن – كمـــا أســـلفنا– محـــدودة، وجزئـــية ،بل لقد كانت شاملة ومتعددة المظاهر..

لقد كان المد الحركي الحضاري أفقيا يتمثل في:
تحول العبيديين عن افريقيا وحلولهم بمصر،وانحدار السلاجقة إلى العـــراق والشـــام وتوسعهم في الأقاليم من حولهم ودخول الهلاليين بلادالمغرب قادمين من المشرق..
وكـــان المد عموديا..تتواجه فيه قوتان رئيسيتان على الأقل، قوة التجديد، النابعة من ذات الكيانات الإقليمية:

– القوة الذاتية وقوامها المرابطون ، ثم الموحدون، والأيوبيون.

– القـــوة الأجنبـــية العاتية والمتوغلة في أرض الإسلام وثغوره والممـــثلة فـــي الـــروم والـــنورماند والنصرانية الإسبانية، بعد أن

استصـــفوا، أو باشـــروا استصـــفاء أنحـــاء الإســـلامية في أوروبا والمتوســـطي..وســـتكون الأندلس أجلى مظاهر هذا المد الإكتساحي الذي تعرضت له جغرافية المسلمين في تلك العهود ..

لقد كان العصر بهذه الإنجراف المتعارض ، عصر تشكل بشري وحضاري جديد، سترث العصور التالية عنه خصائص جوهرية يظل الوجدان الجمعي والشخصية القومية مطبوعين بها الى الأبد، وخاصة في بلاد المغرب العربي..

لقـــد تمـــيز المـــرحلة بمخاضات عنيفة كانت تأخذ أحيانا شكل رهانـــات سياســـية تـــتجدد بهـــا الآمال حينا ثم تخمد تاركة الشعور الإســـلامي العـــام فريسة لحيرة وجودية عبرت عنها في كثير من الحـــالات حـــياة بعـــض الأفراد ممن راحوا يبحثون عن التكيف في تجربة السلوك والزهد والإرتياض الروحي.

لقـــد كان ابن النحوي واحدا من هؤلاء المتحيرين ، إذ آثر بعد طول تطواف أن يسير على نهج شيخه الغزالي ويختار الانقطاع مثله عن الحياة الصاخبة ..

لقـــد كان هناك من الأحداث ما يأخذ شكل الرمز في تعبيره عن المآل الإرتكاسي الأليم الذي انتهت إليه أوضاع الإنسان والحضارة..

ولعل أهم واقعة فكرية وثقافية وسياسية عرفها المغرب العربي ، في تلك المرحلة كانت حادثة حرق كتاب الأحياء للغزالي.

إنها واقعة تعكس مآل الخيبة واليأس الجماعي الذي أطبق على الناس والذي كان له معنى الإنتحار والتوق إلى التجدد . إنه لفعل مأساوي ينطوي على روح الأسطورة.

لقد جاء المرابطون إلى الحكم يرفعون شعار الإنبعاث من خلال دافعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد حرك فيهم وازع الدعوة التجديدية فتى متعلم انتدبه أحد فقهاء حاضرة القيروان حين مر به وفد من حجيج الصحراء إذ طلبوا منه أن يرسل معهم أحد تلاميذه يعلمهم كتاب الله وسنة رسوله، ففعل..وإن هي إلا سنوات مرت على هذا الحادث حتى كان أبناء الصحراء يقتحمون الأمصار، ويفتحون الأوطان..وهوت تحت زحفهم دولة مغراوة الزناتية، واقشعر جلد الأندلس الطائفية ثم لم تلبث أن تهاوت قصورها تحت ظلال رماحهم حين تحولوا إليها منجدين ملوكها ضد الإجتياح النصراني..

وكان طبيعيا أن تبحث سلطة ابن تاشفين بعد الذي تهيأ لها من انتصارات وفتوح، عن الشرعية، فكانت إشارة الفقهاء عليه أن يخطب للخليفة العباسي، وأن يلتمس الشرعية من فقهاء العصر ، فكان كتاب الغزالي إليه يومها بمثابة رسم الإعتماد الشرعي الذي تأصل به للقائد المرابطي لقب أمير المسلمين، كما أحب أن يلقب..

الشخصية الجزائرية بانوراما المشهد الحضاري لميلاد الدولة الحمادية

على أنه حدث في عهد علي بن يوسف بن تاشفين أن صدرت الأوامر السلطانية بإحراق كتاب الأحياء..وكانت التهمة التي رفعها الفقهاء بشأنه أن فكر هذا المصدر الديني يناهض الفروع وينبذها، ويدعو إلى الأخذ بالأصول والرجوع إليها وحدها.

إنها في الواقع صورة أخرى للنزعة الظاهرية التي لبثت تتجدد في بلاد المغرب خاصة والتي هدف أصحابها، بعد إنسداد الطريق أمام الفكر الإسلامي إلى إختراق الحصار الذي أزم العقل وكبل الدينامية.

وهكذا تبلور الإشكال الثقافي والروحي الذي كانت له جذوره السياسية والإجتماعية الضاربة في عمق فكر الأمة ومعتقدها ، والذي بات يعكس ما كان قد بدأ يعرو الدولة المرابطية من ضعف وما بادرها من تحلل.

لقد كان ذلك الجدل الديني السلبي أحد أعراض الإنهيار.

إذ أنه من الوجهة الدينية القويمة لا إشكال يقوم بين أصول التشريع وفروعها بل إن التفريع يعد مظهرا حيويا، يبرز مدى فاعلية إجتهاد الأمة، ويبين ديناميتها الفكرية وتكييفها لمتحولات واقعها مع روح العقيدة .

فالحياة تتسع لما يتعدى الأصول، إذ الأصول هي الإطار، أو ما يمكن أن يسمى المبدأ الإطار الذي يقوم أساسا على قابلية الإنفتاح ومواجهة الإحتمالات المجهولة والخارجة عن نطاق الراهن .

من هنا كان ذلك الجدل الذي ميز بين من نسميهم : الأصوليون والمفرعون ، جدلا عقيما يخفي ما أصاب الأمة من إفلاس مدني ومعرفي .

فقضية حرق كتاب الاحياء ما كانت في الحقيقة إلا عرضا انهياريا شاعت له الظروف السياسية والتاكتيكية أن يجسد صورة المفارقة العجيبة التي كان يسير فيها واقعنا الفكري، بحيث نجد هذا الواقع ينتهي إلى حد تكفير الغزالي ، وهو كما نعرف الإمام الحجة الذي استمد منه السلطان المرابطي نفسه الإعتماد الشرعي في مرحلة النشوء.

ولنتذكر رسل ابن تاشفين إلى الخليفة العباسي وإلى الفقهاء ومنهم الغزالي.

إننا نعتقد أن المعارضة التي كانت تتطلع إلى عهد سياسي آخر ، هي التي نظمت وافتعلت مثل ذلك الجدل الذي أخذ أبعادا تمييزية وايديولوجية سافرة.

والذي لاريب فيه أن تلك الواقعة –واقعة الحرق– إنما عكست من بعض وجوهها صراعا تجديديا كانت قوته تفاعل الأوضاع من موقع هامشي، لم يمكنها من أن تحسم الصراع لصالحها ، أو أن تعدل المسار نحو أهدافها الإحيائية إلا على ذلك النحو الجدالي القاصر.

لقد كان كتاب الإحياء، بغض النظر عن محتواه إذا ما قومناه بالمنظور العصري، مدونة تحضيرية، تمدينية ، من مقاصدها طبع الناس بروح الشرع، وتكييف أخلاقهم مع المنطق الديني، والتلويح أمامهم براية التوبة والإثابة إلى الله، وإعطاء الرجاحة في مساعيهم وتعاملاتهم لتعاليم كتابه ولأحكامه،وجعلها معايير تضبط سلوك المجتمع .

ولقد كانت حياة الغزالي ذاتها تجربة انتهت بالإحتراق الروحي هي أيضا، ومثلها كانت حياة تلميذه ابن النحوي الذي كان له في غمار تلك المحنة، دور الفاعل والمنفعل بالوقائع .

ففي غمار ذلك الاحتدام الجدالي لم يقعد بابن النحوي وازع الامساك والورع ولا نكبته في ماله وتغربه عن وطنه (القيروان) من أن يدلي بدلوه ويصدع برأيه صريحا في ما كان يجري بإزائه .

ترى هل كان قدر المثقف المسلم في تلك الحقبة أن يسبح ضد التيار، إما بامتشاق سيف التمرد والثورة، كما سيفعل ابن تومرت

مثلا فيتصدى للأوضاع يقلبها ،وإما بالإنطفاء وإخمال النفس وملابسة الأحوال الغيبية ومعايشة الواقع من وراء عوازل ذهنية ، تأويلية واقية ، كما فعل الغزالي، وتلميذه ابن النحوي وكما سيفعل ابن العربي وابن الفارض والسهروردي وآخرون؟

أم هي تجربة التميز المرتبطة بالألمعية تزج بصاحبها في طوائل الوحدة والتفرد حتى لا ترديه ضراوة الواقع وتفسخاته..

يذهب بعض إلى الإعتقاد بان ابن النحوي قلعي المولد، ونحن لايهمنا تثبيت الواقعة أو توثيقها بقدر ما يهمنا وضع اطار عام يعكس شيئا من الوضعية العامة التي كان عليها المثقف في البيئة المغربية، ذاك العصر ، وقد تكون الإفتراضات نسبية في صحتها لكن المهم أن لايخرج التصور العام عن الإطار الإحتمالي الذي رسمته الروايات القليلة لحياته..

ويظل الإعتقاد راسخا لدينا بأن الإحالة على حياة ابن النحوي ، تأخذ رغم خصوصيتها بعدا جمعيا ، عموميا..إذ لا يبعد أن تكون لتجربته الحياتية قواسم مشتركة مع ما عاشه الناس في تلك المرحلة.

واذا ما التفتنا مرة أخرى إلى حياة ابن النحوي ، فما أسرع ما سنلاحظ تفردها.

إنها حياة انبنت هي الأخرى على ثنائية السلب والإيجاب التي وسمت العصر و غدت في كنفها شخصية الفرد عنوانا لهوية جمعية مفصومة، تزاوج فيها الباعث وضده .

لكأن إرادة الأفراد كانت تتحرك بفعل الظروف والجبرية السياسية والمدنية أكثر من تحركها بالوعي الذاتي والتقدير السليم للتوقعات والإحتمالات.

ترى هل كان العصر في كليته يغلف الأمة بحال من الإستيلاب عامة، امحت فيه الأهداف من أمام الأفراد والجماعات ، وتوهموا غايات أخرى، فساحوا، وناحوا.. ليعيشوا آلام الإحتضار باحساس عميق زاد من الفجيعة..

لقد تولى ابن النحوي إلى وطنه، فوجده خرابا يبابا، ووجد ما تبقى من القيروان قد صودر وباعه شيوخ القبائل الهلاليون للمتغلب الحمادي: الناصر بن علناس، وكانت نكبته من ممتلكاته مضاعفة ، إذ عجز عن أن يجد النصفة والعدل لدى الحاكم..ولم يسعه ألا أن ينصرف إلى حيث أمل أن يحقق لنفسه مكانة..

ويتهيأ لنا هنا طرح سؤال حول شخصية ذلك الحاكم الذي ابتز أملاك ابن النحوي ، هل يكون الحاكم الزيري أم احد الخراسانيين الذين نصبهم الحماديون على حواظر وأقاليم عدة من تونس ، والذين ظلوا يمثلون الحماديين بالاقاليم التونسية التابعة لهم إلى أن التحقوا

بالقلعة بعد أن دب الإنهيار في أوصال الدولة الزيرية ، وخاصة بعد الإجتياح الهلالي؟

أم ترى كان ذلك الحاكم شيخا هلاليا ممن مارسوا المداهمة ؟ أم أن ما حدث حدث له فيما كان يقيم في القلعة وليس في توزر؟..

والمســـتبعد في كل هذا أن يكون الحاكم المبتز حماديا، إذ لو كان كذلـــك لكـــان خروج ابن النحوي من القلعة نهائيا، فقد رأيناه ما أن تجبهه المشاكل بالمغرب حتى يؤوب إلى القلعة ثانية، لا ليكون حلوله بهـــا عابرا، ولكن ليتوطنها، حيث سيعيش حياته التعليمية والروحية الى آخر العمر..

ما يهمنا في هذا الإستطراد هو تحسس حال ابن النحوي في تلك الحقبة التي أعقبت رجوعه من رحلته الطويلة..

فـــالذي توعـــز به الرواية أن خروجه بعد أن منع من استرجاع أملاكه كان من أجل أن "يذهب صيته في الناس". وذهاب الصيت لا شك يكون إما بطلب الدنيا أو بطلب الدين والعلم، او بطلبهما معا.

علـــى أن الإســـتنتاج الآخـــر الممكن استساغته من هذه الإشارة الخبرية عن حياته هو أن ابن النحوي لم يخرج إلى المغرب زاهدا ، ولم يدفعه احساسه بالجور، وبالعوز، بعد رحلة علم وتعبد مديدة ،إلى

أن يتصـــوف ويخـــرج سائحا راضيا بالمصير الذي انتهى إليه بعد التطواف الطويل ..

فالحادثة لم تضعف همته، ولم تصرفه مصرفا سلبيا يقطع أسبابه بالحياة العملية، بل لقد جابه الحالة بتجدد همته إلى السفر وإلى السعي لإكتساب ما يتوطد له به الإعتبار .

علـــى أن الأهـــم في هذا أيضا أن الرجل بهذا الإستعداد المتجدد للـــرحلة والـــذي أعـــرب عـــنه بعد الإمتحان، إنما كان يؤكد الحال المعنوية السوية التي عاد عليها من المشرق ومن الديار الحجازية..

إذ لم يعد متنسكا منها ولا متزهدا، هو الذي خرج، على ما تزعم الرواية ، واعتقاد التوكل يفعم روحه، إذ روي أن بعضا من آله فيما كـــان يغـــادرهم إلـــى المشرق طلب إليه أن يوكل بأهله وذويه أحدا يكفلهم، فخط في ورقة شيئا، وقال لهم:

أو دعتكم هذا.. فلما فتحوا الورقة بعد حين وجدوا فيها:

الذي وجهت وجهي لــــه — هو الـــذي خلفت في أهلــــي
فإنه أرفق منـــي بهـــم — وفضلـــــه أوســـع من فضلي

فالـــرحلة لم ترسخ فيه نزوع الإضراب عن الدنيا كما كان شأن العديد من أهل العلم ذوي الإحساس الديني الراسخ ، وما يلابس ذلك الإحســـاس – عـــادة–من وعي بعزة النفس والترفع عن الدنيا وعدم التهافت طلبا لها .

لكننا سنجد ابن النحوي، على زعم الرواية، يستبدل قناعة بقناعة ما أن يصل الجزائر،حيث نراه يأخذ بمبدإ مناصرة الحق، والخروج في سبيله، كما يؤكده ذلك التصريح المنسوب اليه، حيث يقول مخاطبا نفسه:

"يانفس، خرجت مهاجرا إلى الله تعالى ورسوله، ورفضت الدنيا منذ الأعوام المتطاولة، فتقابليني بهذه المقابلة، والله ماخرجت لنصرة المخلوق دون الخالق"

وواضح أن هذا الإقرار يثبت جذوة استرخاص الدنيا التي كانت تسكن أعماقه، والتي ظل يمارس بها حياته كاحساس يقمع فيه الرغائب والأهواء، إلى أن كانت صدمة الإغتصاب التي تعرض لها على يد الوالي ، فكان من ثمة ثورته وكان سفره، وكانت الروحية التي انزاح بها وبصورة نهائية عن طريق العام والتزم طريق الشظف والزهد..خصوصا وأن روحه كانت تستلهم سيرة إمام العصر، الغزالي، ذلك الرجل الذي كانت تعاليمه تعظم من شأن الصلة الإعتقادية، وتنوه بأفضال التوكل الخالص، وترجح جانب أهل الصفاء والزهد والمتحررين من قيد السؤال..

لقد كان الغزالي، بإدراكه الواقعي لمآل عصره ، يضمد جراح الأمة بروح شفوق، ولم يكن يرى في الدعوة إلى الإنتفاض على الواقع جدوى، لأنه كان على بصيرة بهمود الجسد، وانزراع الأدواء المعضلة فيه..

لقد ظلت تعاليم الغزالي مادة تسكين وسلوى تعاطتها الأمة طيلة عصور احتضارها..وإن قراءتنا لتراثه اليوم لا يمكن أن يكون لها من معنى إلا إذا استخلصنا الكوامن النفسية والإرتكازية التي ظل خطابه يهيئها للأفراد والجماعات ويعزيهم بها على مدى قرون من السكون والوعي الغائب ..

ترى هل كان ابن النحوي، وهو يتصدى للعدوان الفكري والسياسي الذي تعرض له تراث معلمه الغزالي على يد مثقفي النظام المرابطي وفقهائه الذين أفتوا بإحراق الإحياء ، يناصر مدرسة، أو ينتصر لقيم يكون تشبع بها غداة مكوثه في الشرق ،أم أنه سعى بذلك الموقف الدفاعي إلى الإعلان عن قيام فكر تنويري يطمح إلى ترجيح دور القيم والأخلاقيات لتظل جذوتها حية في النفوس تقاوم بها أفاعيل التردي التي كانت تعزز من آثارها النفسية معاول الهدم الحضاري والغزو الصليبي .

ويبدو لنا أن المنعطف الحضاري الخطير الذي كانت الأمة تجتازه عصرئذ قد أفرز هذا المستوى من الإستجابات التنويرية التي تمثلت في أصوات، مصلحين كانت ظروف الأمة تصرفهم إما إلى الثورة وإما إلى الإعتصام بروحانية الرباطات والخلوات..

لقد عرفت منطقة المغرب العربي خلال تلك الفترة – وستعرف فيما بعد– ظهور دعاة مثقفين استماتوا في ركوب المغامرة الإنقلابية، نشدانا للإصلاح..

وربما كان ابن تومرت، وعبد المؤمن، وابن خلدون، وأبو المحلي، وخير الدين والتجاني، وعبد القادر، وبن باديس، و..آخرون، بعض رموز هذا التصدي المناهض لمعضلة التحلل، المعتد بالمقدرات الروحية للذات ، المحترق بوهج الفعل والمراهنة على الانبعاث والإنخراط في تجديد دعائم الكيان..

انجذب ابن النحوي إلى تبني فعل التغيير ، فناهض فقهاء المغرب والأندلس ، وكان الأمير يومئذهو علي بن يوسف المرابطي، فراح ابن النحوي يدافع بالحجة عن شيخه الروحي، وكانت تبعة ذلك الموقف، أن نفي وحظر التعامل معه في دولة المرابطين، فكان منه ذلك الثبات الذي جسده من خلال انحياز فكري وروحي مطلق لشيخه، إذ قرر أن يوقف عمره على دراسة كتاب الإحياء وتدريسه.

فقد أثر عنه أنه استنسخ الكتاب في ثلاثين جزءا ، ليداوم على قراءتها مفصلة وخصوصا في شهر رمضان..

وظل ينوه بذلك الكتاب ويكرر لمريديه، ولمن يتصلون به ،أنه ود لو لم ينظر في عمره سوى الإحياء.

بل إن الإنبهار بتعاليم الغزالي سيجعل ابن النحوي ينظم فيه شعر تبجيليا تمجيديا:

أبو حامد أحيا من الدين علمه ... وجدد منه ما تقادم من عهده

ووفقه الرحمن فيما أتى به ... وألهمه فيما أراد إلى الرشد

ففصلها تفصيلا فأتى بها ... فجاءت كأمثال النجوم التي تهدي

لقد بلغ الإعجاب بالغزالي وبآرائه حدا غدا معه التلميذ الروحي ابن النحوي، بسلوكه ومواقفه، معدودا في نظر أهل المغرب بمثابة الغزالي عند المشارقة.

وتلك نتيجة طبيعية تجعل غالبا من التلميذ صدى روحيا لشيخه،وهو ما أشار اليه عبد الله الصنهاجي أحد مثقفي القلعة في ذلك العصر ، حيث قال:

"كان أبو الفضل في بلادنا بمنزلة أبي حامد الغزالي في العراق في العلو والعمل" .

وإذا كان الغزالي قد عاش الحظوة السياسية ، وطفق يتصدر التشريفات ضمن هئية العلماء البغداديين خلال مقامه مدرسا بالنظامية، حيث كان الإقبال على أهل العلم من جملة ما تذرعت به المؤسسة الحاكمة لإسناد مشروعيتها ، إذ أن المجتمع المدني في الحواضر الإسلامية كان يمارس نفوذه من خلال توفير الواجهات العلمية وتوقيرها، محققا على ذلك النحو شيئا من شروط حفظ التوازن بين القطاعات والقوى..قلت إذا كان الغزالي قد عاش في بيئته معززا موقرا، فإن ابن النحوي،كما توعز بعض الإشارات، لم

يلـق مـثل ذلك التكريم الرسمي ، حتى في بلدته القلعة، فقد ذكر أنه مر ذات يوم بابن عصمة المفتي ولم يسلم عليه لانشغال باله ، فعظم ذلك على المفتي وناداه ، محقرا:

"يا توزري صفرت وجهك ، ورققت ساقيك ، وصرت تمر فلا تسـلم.. قـيل ، فاعتذر إليه ابن النحوي ، فلم يقبل عذره وأغلظ له القول ، فقال له أبو الفضل غفر الله لك يا أبا محمد ، وانصرف..

ولئـن أمكنـنا أن نفـيد من هذا الخبر شيئا ، فهو هوان جانب صاحبنا عند بعض ممثلي السلطة في القلعة ، فالمفتي يومها كان في مصاف القاضي ، والإمام وثلاثتهم يشكلون السلك الديني الذي تعتد به الدولة، وتسوس به إلى جانب الآلة العسكرية – شؤون الناس .

وربمـا اعتبرنا مثل هذا التحامل الذي صدر عن المفتي ضربا مـن مواقف الاساءة التي كانت تحمل عليها روح التنادد بين الأفراد والأقران في العلم ، لكن تبقى النتيجة في الحالين تؤكد حال الهوان التـي لبـث تلحق علماءنا في وطنهم وعلى يد ذويهم، وهو ما ظل يشكو منه بمرارة كثير منهم وفي كل عصر.

لقد كانت القلعة تواجه مخاطر خارجية تتمثل في تهديدات جاريها المرابطـي غـربا والزيري شرقا ، وفي الحصار الزناتي والهلالي المضـروب علـيها مـن أنحاء عديدة..وذاك ما سيلجئ ساستها إلى اختـيار الوجه البحري ، وأعالي الهضاب لتأسيس عاصمتهم الجديدة بجاية..

وإذا كان ابن النحوي قد ظل مقيما في القلعة حتى بعد أن ارتحل السـلطان عـنها إلـى بجايـة ، فذلـك يؤكـد طلاقـه النهائي مع السلطة..وخروجه عن سلكها..

ولابـد مـن الإشارة إلى أن الإضطهاد السياسي الذي استهدف تـراث الغزالي واستهدف أيضا تلاميذه من المتنورين المغاربة، قد أحدث شيئا من البلبلة أوساط اجتماعية كثيرة..

فقـد رأينا مثلا علماء تلمسان يوجهون رسالة إلى الفقيه الزناتي أبي زكريا المقيم يومئذ بالإسكندرية، يطلبون رأيه في الغزالي..

ونقـدر بالإسـتنتاج أن تاريخ مقام ابن النحو النهائي في القلعة يصادف شطرا من عهد المنصور الذي حكمها ما بين 435 و 481 هـ.وعهد باديس القصير(أقل من سنة)، وعهد العزيز الذي ابتدأ في سنة 498 وانتهى عام 515هـ .فإنها دون ريب ، الفترة التي تحقق فـيها للإمـارة الحمادية ازدهارها واستقرارها، حيث استطاعت أن تسـتوعب أطـراف التغيـير بأشـكاله الهدامة والبناءة، سواء من المعارضة الحمادية ذاتها أو من الهلاليين وزناتة ، أو من غيرهم..

وهـي أيضـا المرحلة التي أضحت فيها بجاية واحة أمن ومثابة سـلام يأوي إليها المسلمون المطاردون من أوطانهم، إذ كانت مهبط المسلمين من صقلية مثلا، وكان بينهم كما نعلم ،الشاعر ابن حمديس

الصقلي الذي آوى إليها وأقام بها ما يؤكد أهميتها الإستقطابية في منطقة المغرب يومئذ.

ذكر ابن خلدون أن عليا بن مجاهد العامري صاحب دانية عند فراره من أمام الجيش المرابطي يمم شطر بجاية فاستقبله أميرها الناصر وأكرمه.. وكانت الإمارة ملاذا لملوك غرناطة الزيريين، فقد نزل عبد الله بن بلكين على الناصر فأكرمه وخيره في الإقامة ، فاختار دلس البحرية.

كما أن علاقة الإمارة بأوروبا وبالبابا كانت في هذه المرحلة متطورة.

إن هذا الإزدهار الثقافي والسياسي الذي ميز تلك الفترة كان على سماحته لا يتسع للتجديد التمدني والتطوير الفكري، ولا يحتمل أي مظهر من مظاهر مناوءة الواقع، حتى ولو كان ذلك تحت شعار الدين..لذا رأينا العزيز يلجأ الى طرد الداعية ابن تومرت ، ذلك المثقف العائد من المشرق، مثل سلفه ابن النحوي، والذي كانت أعماقه تموج بمشاريع الإصلاح والتغيير.

على أنه لابد من الإعتراف بأن ذلك الإجراء الإقصائي الذي اتخذه الأمير العزيز ضد ابن تومرت قد حدث بعد تلكؤ وتردد واضحين، إذ وجدنا العزيز يرخص أول الأمر لإبن تومرت أن يناظر الفقهاء الرسميين الذين نالوا منه، وعارضوا دعوته.. ثم عاد

فأصدر أمره ثانية بإخراج الفقيه من حاضرته، ونفيه إلى بعض القرى المجاورة لبجاية، لكأن غاية ذلك الإبعاد-على ما يظهر - لم تكن تهدف إلا إلى تسكين الهرجة التي أحدثها إنتصار الفقيه على علماء القصر..

على أننا نعتقد من ناحية أخرى أن جوا من الحذر كان فعلا يميز موقف الحكام المغاربة والمثقفين السائرين في ركابهم تجاه الانتلجنسيا المتعلمة في المشرق والعائدة الى الديار..وذاك ما كان يخيف أهل المصالح والمراكز المتنفذة، فكان طبيعيا أن يعمل هؤلاء ما وسعهم العمل على تهميشهم ووصمهم بالنعوت والطعن في أفكارهم ومعتقداتهم.

وليت شعري هل نعت البعثية الذي تلمز به دوائر السياسة والثقافة في مجتمعنا اليوم، إلا إستمرار لذلك الوضع الذي كان عليه أسلافنا؟.

ومهما يكن من أمر، فإن عزلة ابن النحوي، لم تكن محض اختيار ارادي تكيف به مع أجواء ذلك العهد ، بل يهيئ لنا أن وطأة الإقصاء والتهميش الإدارية والسياسية كانت من جملة الدوافع التي حملته على أن يحيا حياة العكوف والإنقطاع تلك ، في حين سيتمكن الشاب ابن تومرت، ومن بجاية بالذات ،من أن يخترق الحواجز ويشق الطريق بفئة المناضلين الذين انخرطوا في حركته وسيتوصل إلى نسف الوضع، وإقامة بديلا له .

المنفرجة بين حـــدث الميلاد والسيـــرورة الذيوع.

تســـوق الرواية خبر وضع ابن النحوي هذه القصيدة، في وثوق وطمأنيـــنة، إذ هي تربط مناسبتها بأزمة نزلت بالرجل، فلما نظمها وابتهل بها إلى الله انقشعت تلك الشدة وأعقبها الفرج.

وتعطـــي الرواية التفصيل عن هذه الشدة فتزعم أنه بعد خروجه مـــن بلدته توزر (تعرض)لإعتداء واليها عليه ، واغتصابه أملاكه ، فـــارتحل الـــى الجزائـــر، وأقـــام بمسجد في قلعة بني حماد، ونظم القصيدة، وتضرع إلى الله أن ينجده قائلا:

لبست ثوب الرجا والناس قد رقدوا	فقمت أشكو الي مولاي ما أجـــد
وقلت يا سيدي يا منتهى أملـــــي	يا من عليه بكشف الضر أعتمـــد
أشكو أليك أمورا أنت تعلمهـــــا	مالي على حملها صبر ولا جلـــد
وقد مددت يدي بالضر مشتكيـــــا	إليك ياخير من مدت إليـــه يـــــد

قـــالوا: فـــرأى الوالي الباغي ما أفزعه إذ رأى النبي(ص) يقول:

ابعث لأبي الفضل في المسجد المعروف بكذا من بلد الجزائر من يأتـــيك بـــه ، ولمـــا مثل ابن النحوي بين يديه سأله حاجته ، فأخبره بها،فأمر له باعادة جميع ممتلكاته، ثم قال له: ما وسيلتك عند رسول الله، فأخبره بنظم هذه القصيدة..

ما علاقة المنفرجة بالشخصية الجزائرية؟

لن نستفيض هنا في تبيان علاقة الوجدان بالفن ، لا سيما الأدب والشعر.

ومما لا ريب فيه أن صياغة القرآن العظيم للنفسية الاسلامية قد أورثها هذا الاستعداد شبه الفطري الذي غدت به تعظم النص، وتعلي مـــن مـــنزلة الكلمـــة، وتجعلها مناط موثقها ، فالكلمة هي العربون والشاهد والفيصل .

ويزيد من شأن الكلمة الكيفية التي تعرض بها ، فاللفظ المخطوط عنوان القدسية والقول المنشود مجلى السمو..

والشـــعر بالقـــياس إلى الأمة الاسلامية يستمد حرمته من قداسة القرآن ، كلاهما يكتب ويحفظ ويساق للحجة ، ويتلى، ويتغنى به غناء الروح والنبل النفسي.

وقد ظلت عيون الشعر محل تعظيم في كل أعصر الأمة ، بل لقد كانت النصوص المتفوقة تحوز التشريف المخلد لها عبر الأجيال.

وهو ما كتب به لقصائد أن تكون سيارة لما لها من قابلية وقدرة على ملامسة الحس الانساني العميق.

من هنا أدرك الانسان أن للشعر نفاذا لا يقاوم ، وسلطانا لا يرد.

لقد ظلت محافل الانشاد مدرسة الجماهير العليا حيث يتم وضعها وجدانيا وروحيا على صعيد يجمع النشوة والكمال .

وظلت من جهة أخرى الأرواح تجد في الشعر أفضل معز ، وأرق مسل ، وأرحم ململم لشعث القلوب حين تعصف بها العواصف، تماما كما وجدت فيه مادة البوح عن المباهج والسعادات.

فالقصيد المعبر هو منديلنا الذي نكفكف به دمع الأحزان ، وهو أيضا الوردة المبرعمة التي نتنفح منها عبق الحياة ، ونبحر في سماوات الهناءة.

والقصائد مثل البشر لها أفئدة وصدور وأمزجة ونفسيات.

ومن القصائد ما يهمس بالمعنى في رقة ومنها ما يجهر بالإيعاز في لطف ، ومنها ما هو ألكن ، ومنها ما هو فصيح ، وأعظمها تلك التي تحمل بين جوانحها قلبا يسع الأحزان ويداوي الجراح ويمنح الأمل والسلوى. وقصيد المنفرجة هو من هذا الجنس الفريد.

لقد حدثتنا أخبار الرحالين أن المنفرجة ذاع صيتها في أقطار الأرض المسلمة منذ عصرئذ. فقد باتت وردا تفزع إليه الجماعات في أحزانها ، وحزبا ترتله في انكساراتها.

لقد شحنها صاحبها بفيض من روحه ، فمكن لها على ذلك النحو أن تتنزل في مواجد الأمة منزلة راسخة.

بل لقد هيأ مزاج هذا القصيدة لابن النحوي أن ينفث في أعطافها ما أثقل على قلبه وجثم على روحه ذات حين من جوى وانكسار سببته معطيات بيئته وجور الحكام وضربات القدر وتعثرات الحظ.

لقد كان الابتلاء من العمق بحيث جاء مفتتح القصيدة على هذه الصورة من السفور والانخراط في عرض شجى القلب على نحو مباشر ومتفائل وبالغ الوقع.

لقد عبأ ابن النحوي سجلا رائعا من الايقاع الذي أكسب هذه القصيدة قبولها.

فهي منظومة خفرة ، راقصة ، زاوجت بين الانطلاق الفني والتعليمية ، إذا أرسل القول فيها برشاقة لا تمارى ، وجمعت إلى ذلك مستوى من التحسيس الديني والتوجيهي ، وسنراها ترهص لمدونات أهل السلوك من أمثال ابن الفارض ، وسيلحق أثرها بقصائد الأمير عبد القادر الروحية.

ومع ذلك تقرأ القصيدة في كليتها فتصدمك فراغات كثيرة لا تلمس فيها باهر معنى وإن استرسل بك النغم على وتيرته المطردة.

ترى هل يمكننا أن نقرر هنا أن المنفرجة كانت تحولا نوعيا في علاقة المسلم بواقعه ، حين جعل الكلمة التي ظل يستمد منها الأسرار والهدايات ، تغدو مادة لصون الذات ، وسلاحا يعترض الضربات ، وحرزا يحقق السلامة.

سنجد الأمة تحترف تعميد نصوص كثيرة في أعرافها وفي ضبط صلاتها بالمجالات المظلمة والمغاليق الصماء .

وإذا كان القرآن هو متن العبادة والإيمان ، فقد هيأت الأمة متونا أخرى جعلتها أداة استنزال لرحمة الله واستنفار ضد عاديات الحياة .

لقـــد بات البخاري نصا متلوا في الملمات والأوبئة وفي الحروب ورد المظالم.

وبـــات خلـــيل راتبا معظما لدى المغاربة وحائزا على قدسية لا هوادة فيها.

وســـتتكاثر المـــنظومات الشعرية والمدونات ذات القيمة المعنوية البارزة والراسخة.

فقـــد انعقدت الألفة بين أوساط الأمة وبين مستوى من النصوص كان الوجدان الجمعي يركن إليها ويذعن.

لكأن أمية الامة زينت لها أن تتمادى في تعظيم النصوص ، وأن تنزلها من نفسها منزلة الإعلاء.

ســـتكون البردة واحدا من المتون التي راج تعاطيها في الملمات منذ أن شهر عن صاحبها أنه تعافى من ازمانه لمجرد نظمها.

وهكذا غدت الأمة تعترف لطائفة من النصوص بحظ من الخراقة أدرجها في سلك القداسة.

والحـــال نفســـها ستشمل الانسان ، إذ سنجد الجماهير ترتد إلى حمايـــة أهـــل الكـــرامات- أمواتـــا وأحياء- وتلوذ بهم في السراء والضراء.

لقـــد كانت المنفرجة أنشودة تعترض بها الأمة أنواع البلاء التي تضربها ، وراية تتقي بها الشرور.

وســـيكون لها في البيئة الجزائرية مثيلات تواظب الجماعة على إنشادها والتوسل بها.

فـــياقوتة سيدي الشيخ إلى اليوم هي ورد تقرأه الجماعة كلما حل موسم أو طرأ لازب.

ومـــثلها توســـلية ابن الشاهد الفائية ، التي طالما التأمت الحلقات لإنشـــادها والتوسل بها[11]. لقد تصدت بها الجماهير لغشم المستعمر تضمد بتعابيرها الجراح[12].

فالمـــنفرجة ، حيـــن غدت متنفسا يخفف عن الجماعات المسلمة بعضا من مكابداتها تكون قد سجلت خطوة على طريق تغليب جانب التجريد على الحس ، الخيالي على الحقيقي ، العملي على السحري.

لقـــد ضـــاهت المفرجة من بعض الوجوه في تأثيرها على العقل والوجـــدان المغربـــي والمسلم ما كان لكتاب الأحياء ولمدونات أهل السلوك من تأثير. فالشخصية المغاربية النزاعة إلى الشظف والشدة قـــد تجاوبـــت على نحو أو آخر مع كثير من المتون التي رأت فيها عاملا تربويا ووسيلة تقرب إلى الله .

وربمـــا توجنا القول بتقديم نص المنفرجة ، والمؤمل أن نخصها بدراسة أدبية في غير هذا المكان:

---

[11] مطلعها :

ألا يا لطيف يا لطيف لك اللطف   فأنت اللطيف منك يشملنا اللطف
لطيف لطيف إنني متوسل   بلطفك فالطف بي وقد نزل اللطف.

[12] – من أهم الأعمال الأدبية التي عكست تعاطي المجتمع المغاربي للتوسل ورفع العقيرة بـ يا لطيف ، رواية الحمامي التي عنوانها " إدريس.

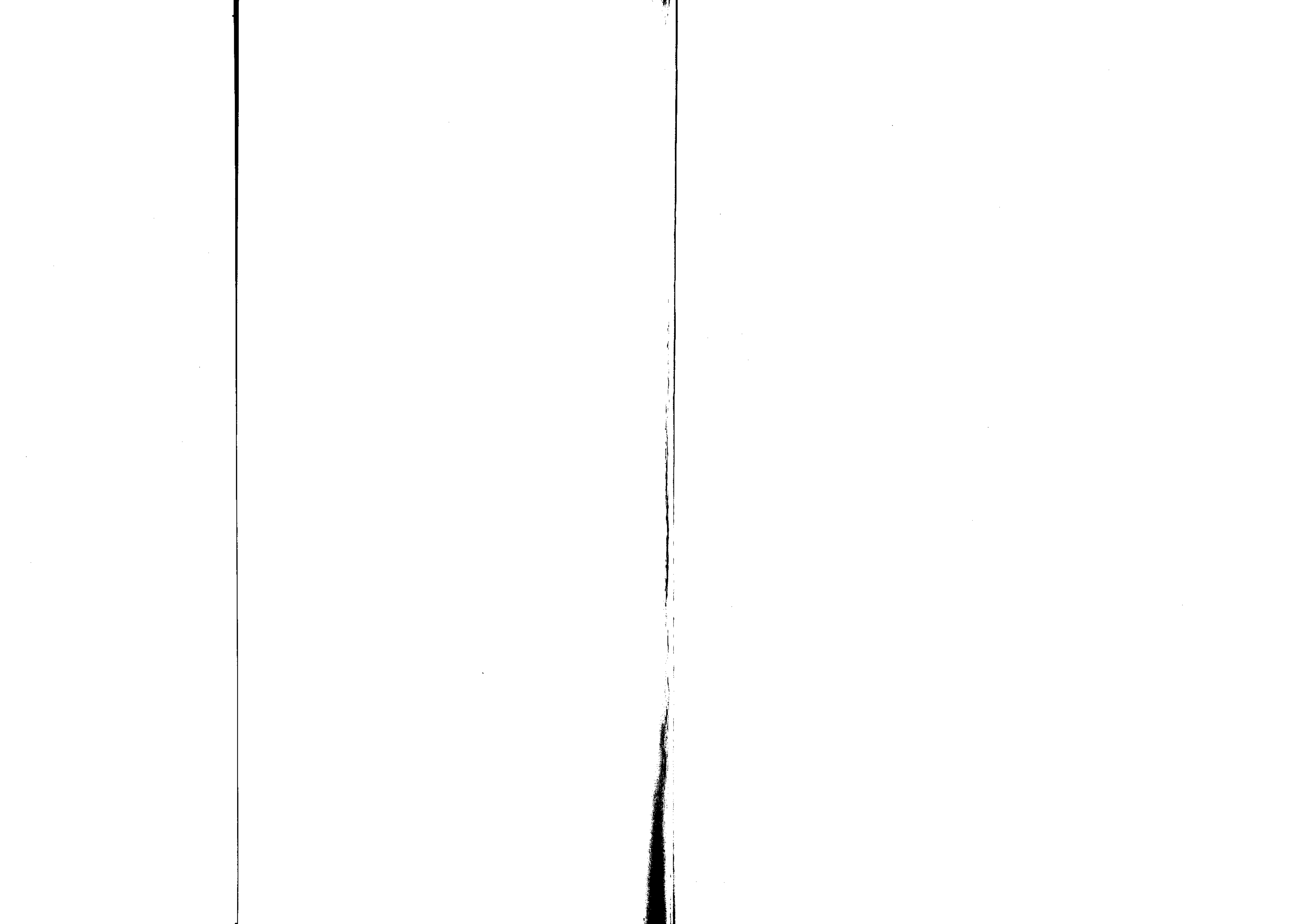
نص القصيدة

اشتدي أزمـــة تنفرجـــي   قد آذن لـــيلك بالبلـــــج
وظلام الليـــل له ســـــرج   حتى يغشـــاه أبـــو الســـرج
وسحاب الـــخير لها مطـــر   فإذا جاء الابـــــان تـــــج
وفوائد مـــولانا جمـــــل   لسروح الانفـــس والمهـــج
ولهـــا أرج محي أبـــــدا   فاقصد محيـــــا ذاك الأرج
فلربمـــا فاض المحيـــــا   ببحور الموج مـــن الـــلجـــج
والخـــلق جميعا في يدـــه   فذوو سعة وذوو حــــــرج
ونزولهـــم وطـــلـــوعهـــم   فإلـــــى درك وإلـــــى درج
ومعايشهم وعـــواقبهـــــتم   ليست في المشي علىعـــوج
حكم نسجت بيـــد حكمـــت   ثم انتسجت بالمـــنـــتســـج
فإذا اقتـــصدت ثـــم انعرجت   فبمقتصد وبـــمنـــعــــرج
شهدت لعجائبها حجـــــج   قامت بالأمر على الحـــجـــج
ورضي بقضاء الله حجـــا   فعلى مركوزتـــه فعـــــــج
وإذا انفتحت أبواب هـــد ى   فأعـــجـــل لخزائنها ولـــــج
وإذا حاولت نهايتها فاحـــذر   إذ ذاك مـــن الـــــعـــــرج
لتكـــــون من السبـــاق إذا   ما جئت إلى تلـــك الـــفـــرج
فهناك العيـــش وبهجتـــه   فلمـــبتهـــج ولمنتـــهـــــج
فهج الاعمــــال إذا ركدت   فإذا مـــا هجت إذا تهـــــج
ومعاصي الله سماجتهـــــا   تزدان لذي الخلـــق السمـــج
ولطاعته وصباحتـــهـــــا   أنـــــوار صبـــاح منبـــلـــج
من يخطب حور الخلد بهـــا   يظفر بالحـــــور وبالـــغنـــج
فكن المرضي لها بتقـــــى   ترضاه غـــدا وتـــكـــون نج

واتل القرآن بقلب ذي ... حرق وبصوت فيه شجي
وصلاة الليل مسافتها ... فاذهب فيها بالفهم وج
وتأملها ومعانيها ... تأت الفردوس وتنفرج
واشرب نسيم مفجرها ... لا ممتزجا وبممتزج
مدح العقل الآتيه هدى ... وهوى متول عنه هج
وكتاب الله رياضته ... لعقول الخلق بمندرج
وخيار الخلق هداتهم ... وسواهم من همج الهمج
فإذا كنت المقدام فلا ... تجزع في الحرب من الرهج
وإذا أبصرت منار هدى ... فأظهر فردا فوق الثبج
وإذا اشتاقت نفس وجدت ... ألما بالشوق المعتلج
وثنايا الحسناء ضاحكة ... وتمام الضحك على الفلج
وعياب الاسرار اجتمعت ... بأمانتها تحت السرج
والرفق يدوم لصاحبه ... والخرق يصير إلى الهرج
صلوات الله على المهدي ... الهادي الناس إلى النهج
وأبي بكر في سيرته ... ولسان مقالته اللهج
وأبي حفص وكرامته ... في قصة سارية الخلج
وأبي عمر ذي النورين ... المستحي المستحيا البهج
وأبي حسن في العلم إذا ... وافى بسحائبه الخلج

الفهرس

الإيداع القانوني :2002-1127
ردمك :9961-54-164-2
دار الغرب للنشر و التوزيع
حي 52 مسكن رقم ENSEP 101 - وهران -
الهاتف:(041).41.65.31/ الفاكس: (041).41.94.31



فباستثناء مراحل ابتدائية، رأينا فيها الدولة، أو بالأصح االخلافة، تتمكن من انجاز مشاريع عمرانية وثقافية وحضارية تتصف بطابع الرخاء وبالمردودية الأدبية والمادية المحسوسة، فإن مراحل الضعف والتحلل قد طغت على شطر عريض من تاريخ المسلمين، وكانت الفتن لا تتي تعاود هدم كثير ممايشيدونه، وهو ما جعل أعراض التفكك الداخلي في المجالات الإجتماعية والسياسية تتكاثر وتتعدد.

لقد نشب في الجسم مخلب الإنقسام والتشتت، وغدا التقاتل والصدام من مظاهر الوجود المدني الاسلامي ، وبذلك كانت الدول الاسلامية تعيش التصدعات، وتسير بسرعة نحو الإنحدار والإنهيار .

إن هذه الآلية المخاضية، المأساوية، شبه الحتمية، هي نفسها تقريبا التي كونت الإطار السياسي والاجتماعي والعمراني لميلاد دولة بني حماد، وهي التي اكتنفت بتأثيراتها النفسية والثقافية الظاهرة الحضارية ووسمت بميسمها شخصية الانسان الحمادي، سيد المغرب الأوسط ، في ذلك العصر، وجعلته يتقهقر شيئا فشيئا نحو عالم القدرية والتوكل السلبي والاستقالة الحضارية.


دار الغرب للنشر و التوزيع